عادات الحرب عند العرب قبل الإسلام

أ.م.د. سعد عبود سمار / جامعة واسط / كلية التربية / قسم التاريخ

المقدمة :

حظيت الحرب عند العرب قبل الإسلام باهتماماتهم ، فضمنوها في أشعارهم ومرويات أخبارهم ؛ لانعكاساتها الخطيرة والمؤثرة في حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وإن تفصيلات الحروب وما خلفته من نتائج في المجتمع العربي قبل الإسلام من السعة والتشعب ، بات من الصعب بمكان الإلمام بها في بحث ، وإنما في أكثر من دراسة . لذا ارتأينا أن يُكرس الحديث في جانبٍ منها ، يتمثل بالعادات التي اقترنت بها الحروب أو ما أفرزتها .

لقد وصلت إلينا أغلب أخبار حروب العرب قبل الإسلام برواية أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ)، جُمعت في كتاب وسم بـ(أيام العرب قبل الإسلام لأبي عُبيدة) من قبل الدكتور عادل جاسم البياتي [١] ، وقدم له بدراسة غاية في الأهمية ؛ للباحث في مادة حروب العرب قبل الإسلام من الوجهة الأدبية والتاريخية ، إذ نجد فيها قراءة تاريخية معمقة لمادة أيام العرب مع موازنتها للملاحم العالمية القديمة منها : (كلكامش ، وعصر البطولة الإغريقي ..) . كما وصلت إلينا روايات الأيام في عدد من المظان الأدبية والجغرافية والتاريخية منها : نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى [٢] ، والعِقد الفريد لابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) [٣]، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) [٤]، والأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي(ت٣٨٠هـ)[٥] ، والعمدة في محاسن الشعر لابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) [٦] وشرح ديوان الحماسة للتبريزي (ت ٥٠٢هـ) [٧] ، ومجمع الأمثال للميداني (ت ٥١٦هـ) [٨]، ومعجم البلدان لياقوت الحموي(ت ٦٢٦هـ) [٩]، والكامل في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) [١٠] .

ومما يؤسف له فقدان مؤلفات اختصت بأيام العرب منها : كتاب الأيام لمحمد ابن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) [١١] . وكتب الأيام لهشام بن محمد السائب الكلبي (ت٢٠٤هـ) وهي : كتاب الأيام ، داحس والغبراء ، وقائع بني شيبان ، وقائع الضباب وفزارة ، وأيام بني حنيفة ، وأيام قيس بن ثعلبة ، وكتاب الكُلاب

---

1 – ساعدت جامعة بغداد على نشره ، مطبعة دار الجاحظ ، (بغداد ، ١٩٧٦) .

2 – تحقيق خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية (بيوت ، ١٩٩٨م) .

3 – دار إحياء التراث العربي ، ط٣، (بيروت ، ١٩٩٩م).

4 – تحقيق سمير جاسم ، ط٢، دار الفكر ، (بيروت ، د.ت).

5 – أبو الحسن علي بن محمد ، تحقيق ، صالح مهدي العزاوي ، ط٢، دار الشؤون القافية ، بغداد ، ١٩٨٧م).

6 – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٤، دار الجيل ، (بيروت ، ١٩٧٢م) .

7 – تحقيق محمد عبد القادر سعيد الرافعي ، دار القلم ، (بيروت ، د.ت).

8 – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، (بيروت ، د. ت) .

9 – دار الفكر ، (بيروت ، د.ت).

10 – تحقيق عبد الله القاضي ، ط٢، دار الكتب العلمية ،(بيروت ، ١٤١٥ه) .

11 – ابن النديم ، الفهرست ، دار المعرفة ، (بيروت ، ١٩٧٨م) ، ص ٨٠.

الأول ، وكتاب الكُلاب الثاني[١٢]. وكتاب الأيام، وكتاب أيام بني يشكر وأخبارهم لأبي عبيدة معمر بن المثنى [١٣] . وكتاب أخبار العرب وأيامها للزبير بن البكار (ت ٢٥٦هـ) [١٤]..

ومن الدراسات الحديثة التي عنيت بأيام العرب ، كتاب أيام العرب قبل الإسلام لمحمد جاد المولى وآخرين [١٥]، جُمع فيه المادة الخام لأيام العرب قبل الإسلام من مصادرها الأصلية ، وقد تم تصنيفها تبعا للقبائل العدنانية والقحطانية مع تعليقات في الهوامش عن أسماء الأعَلام والمواقع . وهناك دراسة عن الحرب عند القبائل العربية في الجاهلية للدكتور صالح موسى درادكة [١٦] ، أثبت فيها الباحث أن المؤسسة العسكرية في الإسلام لم تأتِ فجأة ، ودونما سوابق في المناحي الفنية والفكرية ، وأن الماضي العسكري له أثر في البناء العسكري الشامخ الذي انتصب أمام الأنظار في مطلع الدعوة الإسلامية .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى الدراسات الأدبية التي اهتمت في شعر أيام العرب ، وقد ركزت على الجانب الفني فيه ، ولكن فيها ما يفيد الباحث في حروب العرب قبل الإسلام ، لا سيما أن الشعر الجاهلي يُعد مصدرا مهما من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام ، نعلم منها : دراسة الدكتور علي الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي [١٧] . ودراسة الدكتور عفيف محمد عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي [١٨] . ودراسة الدكتور نوري حمودي القيسي ، الفروسية في الشعر الجاهلي [١٩] . ودراسة منذر خلف الجبوري ، أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي[٢٠] . وثمة دراسة ماجستير وسمت بـ (صورة الحرب وأبعادها الأسطورية) للباحثة ابتسام نايف صالح أبو الرب [٢١] ، تناولت فيها : الحرب في الموروث القديم ، والأبعاد الإنسانية والطبيعية للحرب ، ناقشت فيها الجذور الأسطورية المتعلقة بهذه الحروب ، وعلى الرغم من أنها دراسة للحرب في الشعر الجاهلي ، إلا أن فيها مادة تاريخية اهتمت بحروب العرب ومعتقداتهم . فضلا عن استنطاقها للموروث العربي القديم الذي استند إليه الشاعر الجاهلي ، وهذا ما تفتقر له الدراسات التي سبقتها إلى حد بعيد .

ولا مندوحة قبل معالجتنا لمدلولات العنوان (عادات الحرب) ، أن نناقش الآراء التي توصلت إليها الدراسات السابقة عن أيام العرب ، إذ غلب على بعضها سمة الغلو والمبالغة ، فقد صورت الإنسان العربي على أنه سادي متعطش للدماء ، لا يتهاون في القتل والبطش ، وكأن جزيرة العرب ساحة للمنازلات الدموية ،

---

12 – المصدر نفسه ، ص ١٤٢– ص ١٤٣.

13 – المصدر نفسه ، ص ٧٩ .

14 – المصدر نفسه ، ص ١٦٠.

15 – دار إحياء التراث العربي ، (بيروت ، د.ت) .

16 – الحرب عند القبائل العربية في الجاهلية ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد٢٩، سنة ١٩٨٦، ص ١١٤ وما بعدها.

17 – مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

18 – دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣م .

19 – مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٤م .

20 – دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٤ .

21 – مقدمة إلى جامعة النجاح الوطنية في نابلس ، كلية الدراسات العليا ، قسم اللغة العربية وآدابها ٢٠٠٦م .

تدق فيها الأعناق ، وتسيل فيها الدماء[٢٢] . وسارت على خطى هذه المبالغات بنعت تلك الحروب بالدموية ، فضلا عن المبالغات الأخَر ، ووصل حدّ الإسراف في ذلك إلى المبالغة على أنها دامت قرنين من الزمن ، جاءت على الأخضر واليابس [٢٣] .

إن دراسة أيام العرب بحاجة إلى إعادة نظر موضوعية ، تغربل هذا الكم من المبالغات ، وتضع الأيام في صورتها الصحيحة . على سبيل المثال تعطي روايات الأيام انطباعاً للوهلة الأولى على أن حرب البسوس (بين بكر وتغلب) استمرت قرابة أربعين عاماً ، ولكن في الواقع استحالة القتال بينهما لهذه المدة الطويلة نسبيا ، إذ ما أخذنا بعين الاعتبار الإمكانات البشرية والمادية للعرب حينذاك ، فهي لا تتعدى العداوات بينهما ، فالملاحظ من مرويات حرب البسوس أن أيام القتال الفعلي فيها ، لم تتجاوز الستة أيام[٢٤] ، أو تسعة أيام في رواية أخرى [٢٥] ، وكانت أياما متباعدة . وأنصافاً لعرب قبل الإسلام ، إن الاقتتال والحروب ، لم يكن مقتصرا على العرب وحدهم آنذاك . إنما نقرأ عن حروب واقتتال في أمم أخرى منها : (الهنود القدماء ، والإغريق، والرومان ...) [٢٦] ، ومهما اختلفت أسبابه ، حتى إنها كادت تكون سمة لازمت تاريخ هذه الأمم .

مصطلح الحرب ومدلولاته :

وردت مفردة الحرب في القرآن الكريم في قوله تعالى : **"** كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ **"** [٢٧] . والحرب نقيض السلم [٢٨] ، وجاءت مفردة الحرب بصيغة المؤنث ؛ لأنهم ذهبوا بها إلى المحاربة ، وقوم محربة ، ورجل محرب أي محارب لعدوه [٢٩] . ولفظة (الحرب) ، دارجة قبل الإسلام وتعني محاربة العدو ومقاتلته سواء في الهجوم أم في الدفاع . ومن المفردات التي تدخل في إطار الحرب ، الغزو : ويعني السير إلى قتال العدو [٣٠] .

وقد وصلت إلينا مرويات الحروب بين القبائل العربية وغيرهم (الفرس والبيزنطيين) قبل الإسلام تحت مسمى (أيام العرب) . بمعنى الوقائع والنعم بحسب قول ابن السكيت. والسبب في تسميتها بـ (الأيام) لأن العرب تعني باليوم ، النهار ، وكانت هذه الحروب في الأغلب تقع في يوم واحد ، وتنتهي بانتهائه ، وإذ استمرت لأكثر من يوم ، فإنهم لا يتقاتلون ليلا [٣١] ، وإنما يواصلون القتال في

---

22 – يمثل هذا الرأي : شوقي ضيف ، البطولة في الشعر العربي ، ينظر على سبيل المثال ، ص١.

23 – يمثل هذا الرأي : عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب ، ينظر على سبيل المثال ، ص٧٢.

24 – ينظر : عبد بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ه) ، المعارف ، تحقيق ثروة عكاشة ، دار المعارف ، (القاهرة د. ت) ، ص ٦٥٠.

25 – ينظر تفاصيل هذه الأيام : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٥، ص٦٠٥، وما بعدها .

26 – ينظر : جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار مكتبة الحياة ، (بيروت ، د.ت)،ج١، ص٦٣.

27 – سورة النحل ، الآية ٢٧ .

28 –محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١ه)، لسان العرب ، دار صادر ، (بيروت ، د.ت) ،ج١، ص ٣٠٢.

29 – المصدر نفسه ، ص ٣٠٣.

30 – المصدر نفسه، ج١٥، ص١٢٣ .

31 – المصدر نفسه ، ج١٢، ٦٥١.

الصباح الثاني ، وهكذا ، كما حدث في يوم فَيَف الريح الذي استمر القتال فيه ثلاثة أيام[٣٢] . أو ما حدث في يوم الكُلاب الثاني الذي امتد لأكثر من يومين [٣٣] .

وعرفت الأيام بأسماء الأماكن التي دارت رحى المعارك فيها : مثل يوم عين أباغ ، وشعب جبلة ، ورحرحان [٣٤] ، أو بأسماء الأشخاص كيوم حليمة [٣٥] أو الحوادث البارزة فيها كيوم تحلاق اللمم [٣٦] ، أو أسماء حيوانات كيوم داحس والغبراء [٣٧].

وعلى الرغم من تسمية وقائع العرب بالأيام ، إلا أننا استخدمنا مصطلح (الحروب القبلية) ، لكي نستبعد الحديث عن الأيام التي وقع فيها قتال محدود ، مثل يوم الكديد[٣٨]، أو مسبباتها العرضية والبسيطة ، طغى على أحداثها النزاعات الفردية والمهاترات ، وانتهت بمصالحة وتراجع ، مثل يوم الفجار الأولى [٣٩] . لذا سيتشكل بحثنا من الشواهد التاريخية التي تهتم بالوقائع الحربية التي أشتعل أوارها بين قبائل شمال الجزيرة فيما بينهم ، أو بين قبائل جنوب الجزيرة ، أو بين قبائل من الشمال وقبائل من الجنوب ، وقد ازدادت أحيانا هذه الوقائع حدة ؛ بسبب

---

32 – أبو عبيدة ، نقائض جرير والفرزدق ، ج١، ص ٣٣٧.

33 – أبو عبيدة ، كتاب أيام العرب ، ص ٤٣٨– ص ٤٣٩.

34 – **عين أباغ** : هو واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام ،وكان عندها في الجاهلية يوم لهم بين ملوك غسان ملوك الشام وملوك لخم ملوك الحيرة قتل فيه المنذر بن المنذر بن امرىء القيس اللخمي . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١، ص٦١.

شعب جبلة الموضع الذي كانت فيه الوقعة المشهورة بين بني عامر وتميم وعبس وذبيان وفزارة ، وجبلة هذه هضبة حمراء بنجد بين الشريف والشرف والشريف ماء لبني نمير والشرف ماء لبني كلاب ، هو واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام ، وكان عندها في الجاهلية يوم لهم بين ملوك غسان ملوك الشام وملوك لخم ملوك الحيرة قتل فيه المنذر ابن المنذر بن امرىء القيس اللخمي. ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج٢،ص١٠٤.

رحرحان : اسم جبل قريب من عكاظ خلف عرفات قيل هو لغطفان وكان فيه يومان للعرب أشهرهما الثاني وهو يوم لبني عامر بن صعصعة على بني تميم أسر فيه معبد بن زرارة أخو حاجب بن زرارة رئيس بني تميم وكان سببه أن الحارث بن ظالم قتل خالد بن جعفر ثم أتى بني فزارة بن عدس فاستجارهم فأجاره معبد بن زرارة فخرج الأحوص ابن جعفر ثائرا بأخيه خالد فالتقوا برحرحان فهزم بنو تميم . ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج٣،ص٣٦.

35 – هو اليوم الذي قتل فيه الحارث بن أبي شمر الغساني المنذر بن ماء السماء وجعلت حليمة بنت الحارث تخلق قومها وتحرضهم على القتال . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج٢،ص٢٩٦.

36 – يوم لبكر على تغلب ، سمي بذلك لأن بني بكر حلقوا فيه جميعا رؤوسهم) محمد جاد المولى وآخرون ، أيام العرب في الجاهلية ، هامش ، ص ١٤٢.

37 – بين عبس وذبيان ، وداحس والغبراء ، أسماء فرسين لقيس بن زهير ، المرجع نفسه ، هامش ، ص ٢٤٦.

38 – قتل فيه ربيعة بن مكدم أحد فرسان مضر المعدودين من قبل نبيشة بن حبيب السلمي. التبريزي ، شرح ديوان الحماسة ، ج١، ص ٣٧٥.

39 – حدث فيه قتال شخصي بين بدر بن معشر الغفاري ، والأحمر بن مازن في سوق عكاظ ، وتحاور الحيان حتى كاد أن يكون القتال بينهما ، ثم تراجعوا بعد أن رأوا الامر يسير . ابن عبد ربه، العقد الفريد،ج٥، ص٢١٦.

التحالفات القبلية على اختلاف أهدافها سواء المصلحية منها أم بسبب الاشتراك في النسب الأعلى للقبائل .

وإكمالا لتوضيح دلالة العنوان (عادات الحرب) ، لذا نجد بُداً لتبيان ما يعنيه مصطلح عادات ، ومفردها (عادة) ، وهنا لا يعنينا المفهوم المعاصر لتلك المفردة ، إذ هناك تعريفات كثيرة لها ، تتمحور حول سلوك جمعي متكرر ، يُكتسب ويتوارث اجتماعيا ، فهي ظاهرة اجتماعية تمثل أسلوبا اجتماعيا [٤٠] . بيْدَ أن ما يعنينا الأصل اللغوي للمفردة – عادة – وردت في لسان العرب ، في مادة (عود) : و تعود الشيء و عاده و عاوده معاودة و عوادا و اعتاده و استعاده ، وأعاده أي صار عادة له ، وعودة الشيء جعله يعتاده ، والمعاود المواظب [٤١] . فدلالتها الرجوع إلى الشيء مرّة إثر مرّة ، أي المواظبة على الرجوع ، وترتكز على الشيوع في السلوك الاجتماعي .

عاداتهم في الحروب :

عُدّت الحروب عند العرب قبل الإسلام هاجسا لازم الفرد في أغلب أوقاته ، فكانت ظروف البيئة القاسية التي يعيش فيها اغلب قبائل العرب جعلتهم يتزاحمون على الموارد الاقتصادية فيما بينهم ، فحتم عليهم أن يكونوا حذرين يخشون إزاحتهم من مواطنهم ، طمعا في الكلأ والماء وما إلى ذلك من أهمية لموطن القبيلة . كما ترتب على هذه المزاحمة والاحتكاك قيماً ومعتقدات ، منها : (الثأر ، العصبية القبلية ، الإجارة ...) شكلت بدورها بواعثا إضافية لحدوث وقائع أخرى . لذا نظر العرب إلى الحرب بقدسية ، وتعايشوا معها ؛ لأنها قضية حياة أو موت ، دفاعا عن العِرض أو المال أو الأرض ، في المقابل هناك من يريد أن يسلب هذا المقدس ، لكي ينعم في عيشة أفضل ويوسع من نفوذه .

ولأهمية هذه الحروب ، وتعايش العرب معها أفرزت عادات كثيرة منها :

كانت العرب إذا أرادت حربا أوقدت نارا لتصير إعلاما للناهضين فيها ، وكذلك إذ توقعوا جيشا أوقدوا نارا على جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم [٤٢] ، حتى ضمنوها في أمثالهم : " نارُ الحرب أسعرُ" [٤٣] . وجاءت أوصافهم للحرب بتشبيهها بحمرة النار ، وكثيرا ما يطلقون الحمرة على الشدة [٤٤] ، وكذلك : شبت الحرب ، واشتعلت نارها ، واستطار شرارها ، وثار عجاجها ، وهال ارتجاجها ، وفي أوصاف أخرى : حمى وطيسها واغتبطت نفوسها [٤٥] . والدال على أضرامهم نار الحرب ، إذا جدوا وأعجلوا ، أضرموا نارين كما في يوم خزاز [٤٦] ، وفيه

---

40 – فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية ، دار الكتاب العربي ،(القاهرة د.ت) ، ص١٠٥، ص١١٥.

41 – ابن منظور ، لسان العرب ،ج٣، ص٣١٧.

42 – أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ه) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق عبد القادر زكار ، (دمشق ،١٩٨١م)، ج١، ص٤٦٧ .

43 – الميداني ، مجمع الأمثال ، ج٢ ، ص٣٤٦ .

44 – ابن منظور ، لسان العرب ،ج٤، ص٢١١.

45 – أبو منصور عبد الملك الثعالبي (ت ٤٢٩ه) ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف ، (القاهرة د. ت) ، ج١ ، ص٥٧٦ .

46 – جبال ثلاثة بطخفة ما بين البصرة إلى مكة فمتالع عن يمين الطريق للذاهب إلى مكة وكير عن شماله

اجتمعت ربيعة وعلى مقدمتهم السفاح التغلبي وهو سَلمَة بن خالد بن كعب ، وأمرهم أن يوقدوا على خزاز نارا ليهتدوا بها ، وقال له : إن غشيك العدو فأوقد نارين ، فبلغ قبائل مَذحِج اجتماع ربيعة ومسيرها ، فأقلوا بجموعهم ، واستنفروا من يليهم من قبائل اليمن وساروا إليهم ، فلما سمع أهل تهامة بمسير مذحج انضموا إلى ربيعة ، ووصلت مذحج إلى خزاز ليلا ، فرفع السفاح نارين ، فلما رأى كُليب النارين أقبل إليهم بجموع فصبحهم فالتقوا بخزاز ، فاقتتلوا قتالا شديدا أكثروا فيه القتل ، فانهزمت مذحج ، وانفضت جموعها ، فقال السفاح في ذلك :

وليلة بت أوقد في خزاز هديت كتائبا متحيرات [٤٧]

ومن الشواهد الأخرى عن أضرامهم للنار على المناطق المرتفعة ، ليبلغ الخبر حلفاؤهم ، ما كان في يوم اليَحَاميم ، ويعرف أيضا بقارات حوق ، وهو بين قبائل طيء بعضها في بعض ، فلما تجهز أوس للحرب وأخذ في جمع جديلة ولفها ، وبلغ الغوث جمع أوس لها ، وأوقدت النار على مناع وهي ذروة جبل اجأ ، وذلك أول يوم توقد عليه النار ، فأقبلت قبائل الغوث كل قبيلة وعليها رئيسها منهم زيد الخيل وحاتم ، وأقبلت جديلة مجتمعة على أوس بن حارثة بن لأم ، وحلف أوس أن لا يرجع عن طيء حتى ينزل معها جبليها أجأ وسلمى وتجبى له أهلها ، وتزاحفوا والتقوا بقارات حوق على راياتهم ، فاقتتلوا قتالا شديدا ودارت الحرب على بني كباد بن جندب [٤٨] . ويتبين مما تقدم في عادة إضرام نار الحرب هو إيذان لأفراد القبيلة ببدئها ، أو وسيلة لإيصال خبر استنفار القبيلة الأم إلى بقية بطونها ، أو إلى أحلافها من القبائل الأخرى .

و كان العرب يفاجئون عدوهم صباحا ، وإذ استغاثوا للمعركة كان قولهم (واصباحاه) ، لأن العدو يُصبح القوم ويأتيهم حال الغرة والأمن [٤٩] . وهناك من يرى في قولهم (واصباحاه) فيه أمران : أحدهما ، أنهم كانوا يغيرون وقت الصباح ؛ فكأن القائل يا صباحاه يقول قد رهقنا العدو ، والثاني ، أن المتقاتلين كانوا يرجعون عن القتال في الليل ؛ فإذا جاء النهار عاودوا ، فكأن قوله يا صباحاه يريد به جاء وقت الصباح ، فتأهبوا للقتال [٥٠] .

وإذا داهمهم خطر الحرب ورأى أحدهم الغارة قد فاجأتهم وأراد إنذار قومه تجرد من ثيابه وأشار بها ليعلم قومه بالخطر[٥١]. وغدت مثلا : " أنا النَّذيرُ العُريانُ " ، يُقال لكلِّ شيءٍ يُخافُ مُفاجأتُهُ [٥٢]. أي إنه أراد إنذار قومه

وخزاز بنحر الطريق إلا أنها لا يمر الناس عليها ثلاثتها وقيل خزاز جبل لبني غاضرة خاصة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٦٥ .

47 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص ٤٠٧– ص ٤٠٨.

48 – المصدر نفسه ، ج١، ص ٥٠٣.

49 – أحمد بن محمد بن كريم الخطابي (٣٨٨ه) ، غريب الحديث ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوى ، جامعة أم القرى ، (مكة المكرمة ، ١٤٠٤ه)، ج١، ص ٣٢٩.

50 – أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي(ت ٥٩٧ه) ، غريب الحديث ، تحقيق عبد المعطي أمين القلعجي ، (مكة المكرمة ، ١٤٠٢ه) ،ج١، ص ٥٧٧.

51 – الميداني ، مجمع الأمثال ، ص ٤٨.

52 – مجد الين أبو الفيض الزبيدي (ت ١٢٠٥ه) ، تاج العروس ، تحقيق مجموعة من المحققين ، دار الهداية (بيروت د. ت) ، ج ١٤ ، ص ٢٠١.

وأعلامهم بما يوجب المخافة ، لذا نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدا منهم ليخبرهم بما دهمهم ، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم ، وهو طليعتهم ورقيبهم ، وكان يفعل ذلك ؛ لأنه أبين للناظر ، وأغرب وأشنع منظرا ، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو ، وقيل معناه أنا النذير الذي أدركني جيش العدو فأخذ ثيابي فأنا أنذركم عريانا [٥٣]. واختلفت الروايات في أصل النذير العُريان ، فقيل : إن النذير العريان امرأة من بني عامر بن كعب ، لما قُتِلَ المنذر بن ماء السماء أولاد أبي داود وكان جار المنذر ، خشيت على قومها ، فركبت جملا ولحقت بهم ، وقالت : أنا النذير العريان . وفي رواية لأبي بشر الآمدي ، إن زنبرا بن عمرو الخثعمي كان ناكحا في آل زبيد ، فأرادوا أن يُغزوا قومه وخشوا أن يُنذر بهم ، فحرسه أربعة نفر ، فصادف منهم غِرة ، فقذف ثيابه وعدا ، وكان من أشد الناس عدوا فأنذر قومه [٥٤] ، فقال :

أنا المُنْذِرُ العُريانُ يَنْبذُ ثوبَه إذا الصِّدْقُ لا يَنْبذْ لكَ الثَّوْبَ كاذِبُ [٥٥]

وتأتي رمزية التعري ، بالكشف عن جزء من الجسم ، هذا ما نقرأه في مسببات حرب البسوس ، فبعد أن قتل كليب بن وائل (واسمه وائل وكليب لقبه ، سيد ربيعة) من قبل جساس بن مُرة ، لازم الأخير يقين تام ، إنه ارتكب فعلا سيقود قبيلته إلى الحرب لا محالة ، فجاء راكضاً كاشفا ركبتيه ، فلما نظر أبوه مُرة إلى ذلك ، قال : لقد أتاكم جساس بداهية ما رأيته قط بادي الركبتين إلى اليوم ، فلما وقف على أبيه ، قال : ما لك يا جساس ، قال : طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غدا لها رقصا ، قال : ومن طعنت لأمك الثكل ، قال : قتلت كليبا ، قال : أفعلت ، قال : نعم ، قال : بئس والله ما جئت به قومك ، فقال جساس :

فإني قد جنيت عليك حربا تغص الشيخ بالماء القراح [٥٦]

وفي سياق الحديث عن إنذار القوم ، ثمة شخص يقوم بمهمة النذير لقومه ، ولكن هذه المرّة في أبلاغ قومه حين يقترب العدو منهم ، يقال له الصريخ . ويقال : الصَّارخةُ لصَوْتِ استِغَاثَته ، ومنه قولهم سَمِعْتُ صارخَةَ القَوْمِ ، والصَّارخَةُ ، بمعنَى الصَّرِيخ المُغِيث [٥٧] . ويتبين أثر الصريخ في يوم جدود ، الذي حدث بين بكر بن وائل وبني منقر من تميم ، وكان من حديثه أن الحوفزان واسمه الحارث بن شريك الشيباني كانت بينه وبين بني سليط بن يربوع موادعة ، فهَمَّ بالغدر بهم ، وجمع بني شيبان وذهلا واللهازم وعليهم حمران بن عبد عمرو بن بشر بن عمرو ، ثم غزا وهو يرجو أن يصيب غرة من بني يربوع ، فلما انتهى إلى بني يربوع نذر به عتيبة بن الحارث بن شهاب ، فنادى في قومه ، فحالوا بين الحوفزان وبين الماء ، وقال لعتيبة : إني لا أرى معك إلا رهطك وأنا في طوائف من بني بكر فلئن ظفرت بكم قل عددكم وطمع فيكم عدوكم ، ولئن ظفرتم بي ما تقتلون إلا أقاصي

---

53 – أبو زكريا يحيى النووي(ت ٦٧٦ه) ، شرح النووي على صحيح مسلم ، ط٢، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت ، ١٣٩٣ه) ، ج١٥، ص ٤٨.

54 – أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني(ت ٨٥٢ه)، فتح الباري على صحيح البخاري ، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر،(بيروت ، د. ت) ، ج١١، ص ٣١٧ ؛ بدر الدين محمود العيني (ت ٨٥٥ه) ، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت ،د.ت) ، ج٢٣، ص ٧٥.

55 – الزبيدي ، تاج العروس ، ج ١٤، ص ٢٠١.

56 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج١، ص٤١٣.

57 – الزبيدي ، تاج العروس ، ج ٧، ص ٢٩١.

عشيرتي ، وما إياكم أردت فهل لكم أن تسالمونا وتأخذوا ما معنا من التمر ووالله لا نروع يربوعا أبدا ..... ، فأخذا ما معهم من التمر ، وخلى سبيلهم ، فسارت بكر حتى أغارت على بني ربيع بن الحارث ، فأصابوا سبيا ونعما ، فبعث بنو ربيع صريخهم إلى بني كليب فلم يجيبوهم ، فأتى الصريخ بني منقر بن عبيد فركبوا في الطلب فلحقوا بكر بن وائل وهم مقاتلون ، فما شعر الحوفزان وهو في ظل شجرة إلا بالأهتم بن سمي بن سنان المنقري واقفا على رأسه ، فركب فرسه ، فنادى الأهتم : يا آل سعد ، ونادى الحوفزان : يا آل وائل ، ولحق بنو منقر فقاتلوا قتالا شديدا فهزمت بكر[٥٨] .

ويتجلى أثر الصريخ في استنفار بطون القبيلة الأخرى التي ينتسب إليها البطن الذي أُغِيرَ عليه ، بدلالة ما جاء في يوم المُروت (وهو يوم بني تميم على عامر بن صعصعة) ، إذ جمع بُجير بن عبد الله بني عامر وسار بهم ، فأغار على بني العنبر بن عمرو بن تميم ، فاستاق السبي والنعم ولم يلق قتالا شديدا ، وأتى الصريخ بني العنبر بن عمرو بن تميم وبني مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وبني يربوع بن حنظلة ؛ فركبوا في الطلب[٥٩] . ويتم اختيار الصريخ من الفرسان ، إذا طرق الحي من الغزو ، وكان الصريخ يمتاز بالصوت الغليظ الأجش ، ويُذكر إنه إذا شُن هجوما على القبيلة " صهلوا الأجش الغليظ الصوت"[٦٠] . وأحيانا يكون أكثر من شخص ، يتخذوا مكاناً مرتفعاً يستطلعوا قدوم العدو ، وهذا ما نجده في يوم فلج (وهو يوم لبكر بن وائل على تميم) ، وكان بنو عجل قد خلفوا رجلين على فرسين سابقين ربيئة ليخبراهم بخبرهم إن ساروا إليهم تميم ، فلما وصلت إلى الرجلين ، أجريا فرسيهما وسارا مجدين ؛ فأنذرا قومهما ، فأتاهم الصريخ بمسير تميم عند وصولهم إلى فلج[٦١] . فضلا عن الصريخ ، كانت لهم عيون في القبائل التي يختلفون معها ، وفي حديث بعض الغزوات ، أنهم كانوا يتحسبون الأخبار أي يتطلبونها[٦٢] .

ولأهمية الصريخ على نتائج الغزو، اتخذ المغيرون كل وسائل الحذر والتكتم والبحث عن النذر والصريخين ؛ لكي لا يفلتوا منهم فيذهبوا إلى قومهم وهم هدف الغزو أو إلى غيرهم ممن قصدوا بالغزو فيحذرونهم منهم، ويكونوا عندئذ في حالة تأهب واستعداد لمقابلة المغيرين، أو لمباغتتهم بهجوم معاكس عليهم، أو بنصب كمائن لهم قد تلحق أذى بهم، وقد تؤدي إلى الضد مما قصد من ذلك الغزو[٦٣] .

واستعملوا رمزاً في إشعار القوم بالهجوم ، أو تهيء العدو لشن غارة على القوم ، فمن الرموز التي وظفوها ؛ ولها دلالاتها : الرمل أو التراب للدلالة على كثرة العدو ، والشَوْك دلالة على بأس العدو وشدته ، واللون ، إذ كان للقبائل أو ساداتها ألوان يُعرفون بها ، وعدد الأحجار للدلالة على عدد الأيام

---

58 – ابن الأثير ،الكامل في التاريخ ج١، ص٤٨٣– ص٤٨٤.

59 – المصدر نفسه ، ج ١، ص ٥٠٠.

60 – ابن منظور ، لسان العرب ج٦/ص٢٧٤

61 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ،ج١، ص٥١٤.

62 – ابن منظور ، لسان العرب ،ج١، ص٣١٧.

63 – جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، مكتبة النهضة ،بغداد (١٩٦٦م) ، ج٥، ص ٤٠٩.

المحتملة لوصول العدو ، ونبات الحنظل رمز لرؤساء القوم ، والشمس وضوح الأمر كوضوح النهار . وترسل هذه الإشارات من قبل الأشخاص الموجودين في قبيلة لأي سبب كان ، وتزمع هذه القبيلة بالهجوم على قبيلتهم الأصلية . ويضيف (د. جواد علي) إلى ما يعنيه رمز الشوك الذي تُكسر رؤوسه ، بشوكة العدو ، إلا أنه عدو لا يخشى جانبه ، لأنه غير متحد ولا متفق [٦٤] . وتتضح هذه الرموز في يوم الوقيط (لبكر من ربيعة على تميم) ، وكان من حديثه أن اللهازم (حلف يضم : قيس وتيم اللات ابنا ثعلبة من بكر بن وائل، وعنزة بن أسد بن ربيعة ، وعجل بن لجيم) تجمعت ، ومعهما عجل بن لجيم وعنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار لتغير على بني تميم ، فرأى ذلك الأعور وهو ناشب بن بشامة العنبري وكان أسيرا في قيس بن ثعلبة ، فقال لهم : أعطوني رجلا أرسله إلى أهلي أوصيهم ببعض حاجاتي ، فقالوا له : ترسله ونحن حضور ، قال: نعم ، فأتوه بغلام ، قال أتعقل ، قال : نعم إني لعاقل ، قال : فالنيران أكثر أم الكواكب ، قال : الكواكب وهي كثيرة ، فملأ كفه رملا ، وقال كم في كفي ، قال : لا أدري فإنه لكثير ، فأومأ إلى الشمس بيده ، وقال : ما تلك ، قال : الشمس ، قال : ما أراك إلا عاقلا فأبلغهم السلام ، وقل لهم فليعروا جملي الأحمر، ويركبوا ناقتي العيساء ، وليرعوا حاجتي في بني مالك ، وأخبرهم أن العوسج قد أورق ، وأن النساء قد اشتكت ، وليعصوا همام بن بشامة ؛ فإنه مشؤوم مجدود ، وليطيعوا هذيل بن الأخنس ؛ فإنه حازم ميمون ، واسألوا الحرث عن خبري ، وسار الرسول ، فأتى قومه ، فأبلغهم ، فلم يدروا ما أراد ، فأحضروا الحارث وقصوا عليه خبر الرسول ، فقال للرسول : اقصص عليَّ أول قصتك ، فقص عليه أول ما كلمه حتى أتى على آخره ، فقال : أبلغه التحية والسلام وأخبره أنا نستوصي بما أوصى به فعاد الرسول ثم قال لبني العنبر إنَّ صاحبكم قد بين لكم ، أما الرمل الذي جعله في كفه فإنه يخبركم أنه قد أتاكم عدد لا يحصى ، وأما الشمس التي أومأ إليها فإنه يقول ذلك أوضح من الشمس ، وأما جمله الأحمر فالصمان فإنه يأمركم أن تعروه يعني ترتحلوا عنه ، وأما ناقته العيساء فإنه يأمركم أن تحترزوا في الدهناء ، وأما بنو مالك فإنه يأمركم أن تنذروهم معكم ، وأما إيراق العوسج فإن القوم قد لبسوا السلاح ، وأما اشتكاء النساء فإنه يريد أن النساء قد خرزن الشكاء وهي أسقية الماء للغزو ، فحذر بنو العنبر وركبوا الدهناء وأنذروا بني مالك فلم يقبلوا [٦٥] .

وتضيف الشواهد التاريخية بما يؤكد رمز الإشعار بنية العدو للهجوم واستعداداته ، كما جاء في يوم شِعْب جَبَلَة بين تميم وأحلافها (أسد ، وغطفان ، وبنو فزارة) ضد بني عامر وحليفتها عبس ، بعد أن سارت تميم وأحلافها بإمرة لقيط بن زرارة ، فلقي في طريقه كرب بن صفوان بن الحباب السعدي وكان شريفا ، فقال : ما منعك أن تسير معنا في غزوتنا ، قال : أنا مشغول في طلب إبل لي ، قال : لا بل تريد أن تنذر بنا القوم ولا أتركك حتى تحلف أنك لا تخبرهم فحلف لهم ثم سار عنهم وهو غاضبٌ ، فلما دنا من عامر أخذ خرقة فصر فيها حنظلة وشوكا وترابا وخرقتين من يمانية وخرقة حمراء وعشرة أحجار سود ، ثم رمى بها حيث يسقون ، ولم يتكلم ، فأخذها معاوية بن قشير ، فأتى بها الأحوص بن جعفر وأخبره أن رجلا ألقاها وهم يسقون ، فقال : الأحوص لقيس بن زهير العبسي ما ترى في هذا الأمر ، قال : هذا من صنع الله لنا هذا رجل قد أخذ عليه عهد على أن

64 – المرجع نفسه، ص ٤٣٧.

65 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص ٤٩٧– ص ٤٩٨.

لا يكلمكم ، فأخبركم أن أعداءكم قد غزوكم عدد التراب ، وأن شوكتهم شديدة ، وأما الحنظلة فهي رؤساء القوم ، وأما الخرقتان اليمانيتان فهما حيان من اليمن معهم ، وأما الخرقة الحمراء فهي حاجب بن زرارة ، وأما الأحجار فهي عشر ليال يأتيكم القوم إليها ، قد أنذرتكم فكونوا أحرارا فاصبروا كما يصبر الأحرار منكم [٦٦] .

وكانت تضرب لسيد القوم قبة (وهي مستديرة ، لتنفرد عن الخباء) ، عند التهيؤ للمعارك بانتظار قدوم العدو ، وتُعدّ رمزا للسيادة ، يذود أفراد القبيلة عنها ، وكان المقاتلون ينزلون حولها ، كما حدث في (يوم فلج) المار ذكره ، فحين سمع حنظلة بن يسار العجلي بقدوم تميم لغزوهم ، ضرب قبته ، أي اتخذ موقع القيادة ، وعسكر مقاتلو قبيلته معه وتهيؤا للقتال معه [٦٧] . وفي السياق ذاته ، كانت لقريش قبة ، إلا أنها تختلف عن قباب سادة القبائل ، ولكن لها من الأهمية ، فأصبحت من ضمن وظائف مكة التي أوجدتها قريش ، وكانت هذه الوظيفة لبطن من بطونها وهم بنو مخزوم ، وأسندت إلى أحد قادتها وهو خالد بن الوليد ؛ وكانوا يضربون القبة (أي يقيموها على أوتاد مضروبة في الأرض) ، ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وفضلا عن القبة ، هناك وظيفة الأعنة التي أسندت إلى خالد نفسه ؛ فإنه كان على خيل قريش في الحرب [٦٨] .

و كانت العرب إذا أرادت الخروج للحرب ، تلبس الدروع ، والموشى من الثياب ، وتتطيب ، وقد كنى العرب الحرب بثلاثة أشياء ، وردت في قول ابن السكيت : (عطر منشم ، وثوب محارب ، وبرد فاخر) ، ومحارب رجل كان يتخذ الدروع ، يتضح في قولهم : " لبست مع البردين ثوب محارب " . وفاخر رجل من تميم كان صاحب حرب وهو أول من لبس الموشى ، فكل من أراد حربا لبس مثل لباسه . وقيل منشم امرأة من خزاعة كانت تبيع الحنوط فتشاءموا بها وعطرها [٦٩] .

وللتشاؤم والتيامن حيزٌ في عادات العرب بحروبهم ؛ فكانوا يحبذون غزو أعدائهم من جهة اليمين ، لأنهم يتشاءمون في غزوهم من شق اليسار ، إذ اعتقد العرب إن طبع الإنسان داعيةٌ إلى الهرب من شق الشمال ، لذا حبوا أن يأتوا أعداءهم من شق اليمين[٧٠] . ومن عادة العرب أن يستشيروا الكهنة قبل غزواتهم لِتُنَبئهم في نتائجها، ونستدل على ذلك بما ذكره (ابن حبيب) : أن امرأة من طيء يقال لها رقاش الكاهنة تغزو ويتيمنون برأيها ، ولها حزم ورأي ،

---

66 – المصدر نفسه ، ج١، ص ٤٦٣– ص ٤٦٤.

67 – المصدر نفسه ، ص ٥١٤.

68 – المصدر نفسه ، ص ٥١٤.

69 – الحسن بن سهل أبو هلال العسكري (ت القرن الخامس الهجري) ، جمهرة الأمثال ، دار الفكر ، (بيروت ، ١٩٩٨م) ، ص٤٤٥

70 – أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ه) ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، (بيروت ١٩٩٦م) ، ج٣ ، ص ١٧٤.

فأغارت طيء على إياد بن نزار فظفرت بهم وغنمت [٧١] . وكذلك ما قيل عن سجاح التميمية التي تكهنت ، فأتبعها قوم من بني تميم وقوم من أخوالها بني تغلب ، ثم أنها سجعت ذات يوم فقالت : إن رب السحاب يأمركم أن تغزوا الرباب فغزتهم فهزموها ولم يقاتلها أحد غيرهم [٧٢] . وهناك من الشواهد التي تُبيّن ما يؤول إليه مصير القبيلة في حال عدم الأخذ بمشورة الكاهن إلى نهايةٍ لا يُحمد عُقباها ، منها ما جاء في استشارة كاهن بني الحارث (المأمور الحارثي) لقبائل مَذحِج وأحلافها قبل اندلاع يوم الكُلاب الثاني ، فحذرهم من غزو قبيلة تميم ، بيد أن غرورهم بسبب جموعهم الكبيرة قادهم إلى الهجوم ، فكانت الغلبة على وفق ما اعتقده الكاهن في هذا اليوم لقبيلة تميم [٧٣] .

وما درجت عليه العرب في حروبهم ، المبارزة بين قادة الطرفين المتقاتلين ، أو شجعانهم ، قبل التحام الجيشين، فإذا ما كسب أحد المتبارزين النزاع ، ترتفع معنويات جيشه وتزيد من اندفاعهم إلى القتال ؛ أما الطرف الضدّي - الذي تدور عليه دائرة المبارزة - فوقع أثره النفسي بالغ التأثير في جيشه ، وإرهاصا للهزيمة . وقد وردت في أيامهم مفردات تتماثل مع مفردة المبارزة منها : المجالات [٧٤] . والبداد ، ولو كان البداد لما أطاقونا ، أي لو بارزناهم رجل رجل [٧٥] . وبداد : أمر بالمبارزة ، يقال : يا قوم بداد بداد ، ليأخذ كل رجل منكم رجلا ، و البداد : المبارزة ، و يقال لقوا بدادهم أخذوا أقرانهم كل رجل رجلا [٧٦] والمناجزة في القتال المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يقتل أحدهما [٧٧] . والمخالاة ، خاليت فلانا إذا صارعته [٧٨] . .

ومن شواهد المبارزة بين الفرسان ، ما جاء في حرب الفِجار الثاني (بين قريش وكنانة من جهة ، وقيس من جهة أخرى)، وفي اليوم الرابع من أيامهما (يوم عكاظ) ، التقوا في هذه المواضع على رأس الحول ، وقد جمع بعضهم لبعض واحتشدوا

---

71 – ينظر : الميداني ، مجمع الأمثال ، ج١ ، ص ٢٨٨ ؛ أبو عبيد الله البكري(ت ٤٨٣ه) ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ط٣ ، تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين ، دار الأمانة ، (بيروت ، ١٩٨٣م)، ج١، ص ٣٣٩ .

72 – ينظر : أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩ه) ، فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ١٤٠٣ه) ، ج١، ص١٠٨ ؛ المطهر المقدسي (ت ٣٧٨ه)، البدء والتاريخ ، مكتبة الثقافة الدينية ،(نور سعيد ، د.ت) ، ج٥،ص١٦٤.

73 – ينظر التفاصيل : أبو عبيدة ، أيام العرب ، ص ٤٣٠ – ص ٤٥٥ ؛ المفضل بن محمد بن يعلى الضبي (ت) ، ديوان المضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، ص ٣١٧.

74 – أبو السعادات ابن الأثير(ت ٦٠٦ه) ، النهاية في غريب الأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطحناوي ، المكتبة العلمية (بيروت ، ١٩٧٩م)، ج٥، ص ٢٠.

75 – مجد الدين محمد الفيروز آبادي (ت ٨١٧ه) ،القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت ، د.ت) ج٢، ص ٣٤١.

76 – إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، دار الدعوة ، د.ت) تحقيق مجمع اللغة العربية ،(د. ت) ، ج١، ص ٤٣.

77 –ابن منظور ، لسان العرب ، ج٥، ص ٤١٤.

78 – المصدر نفسه ، ج١٤، ص ٢٤١.

والرؤساء بحالهم ، وحمل عبد الله بن جدعان يومئذ ألف رجل من بني كنانة على ألف بعير ، وخرج الحليس بن يزيد أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهو رئيس الأحابيش [٧٩] يومئذ ، فدعا إلى المبارزة فبرز إليه الحدثان بن سعد بن يربوع النصري[٨٠].

وهناك مبارزة تحدث بين قادة الجيشين ، يتم الاتفاق فيها على ما تؤول إليه نتائج المبارزة بينهما ، إلى إنهاء القتال ، وانضمام جيش المنهزم إلى جيش المنتصر ، وهذا ما نجده في إحدى المعارك بين بني سُليح ودولة كندة ، إذ ذُكر أن الحارث بن مندلة ملك الشام وكان من ملوك سُليح من (الضجاعمة) ، قد أغار على أرض نجد وهي أرض حجر بن الحارث الكندي ، وكان حجر منشغلا في غزو أهل نجران ، فاستاق ابن مندلة مال حجر ، وأخذ امرأته هند الهنود ، فلما رجع حجر وجد ماله قد استيق ووجد هندا قد أخذت ، فقال : من أغار عليكم ، قالوا : ابن مندلة ، فجهز الحارث جيشه حتى انتهى إلى ابن مندلة ، فقال له : هل لك في المبارزة فأينا قتل صاحبه انقاد له جند المقتول ، قال له ابن مندلة : أنصفت ، فاختلفا بينهما بطعنتين فطعنه الحارث طعنة جندله بها عن فرسه وانتزع الرمح من نحره وخرجت نفسه ، فظفر الحارث بجنده واستنقذ جميع ما كان ذهب به من ماله ومال أهل بلاده وأخذ هند [٨١] . وتُجسد هذه العادة رؤية قائمة على عناصرٍ شتّى ؛ منها : حقن الدماء ، وتنُم عن أخلاق فروسية محضة ، في إطارها الايجابي ، وهي من جهة أخرى ، تظهر الأنموذج السياسي – الاجتماعي – العسكري ، القائم في أكثر أحواله على مبدأ التسلط الفردي [٨٢] .

وكانت للعرب وسائلهم في رفع معنويات المقاتلين وحثهم على القتال ، ولاسيما إذا شعروا أن دائرة القتال ليس في جانبهم ، والغلبة ستكون للعدو ؛ منها ما يقوم به سيد القوم بعقل نفسه ؛ لكي يدفع مقاتلي القبيلة للذود عن سيدها ؛ لأنه يُعدّ رمزا للقبيلة . ويتجلى هذا الأمر بوضوح في حرب الفجار الثاني (وهي حروب قيس وكنانة) [٨٣] ، فحينما رأى سبيع بن ربيع بن معاوية هزيمة قبائل قيس ، عقل نفسه ، واضطجع ، وقال : يا معشر بني نصر قاتلوا عني أو ذروا ، فعطفت عليه بنو نصر وجشم وسعد بن بكر وفهم وعدان وانهزم باقي قبائل قيس ، فقاتل هؤلاء أشد قتال رآه الناس [٨٤] . وتتضح عادة عقل أو تقييد سادات القوم أنفسهم في يوم عكاظ من حرب الفجار الثاني ، حين سارت قريش حتى نزلت عكاظ وبها قبائل

---

79 – الأحابيش : وهم " بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وبني الهون بن خزيمة : القارة وعضل والديش وبنو خزاعة : الحيا والمصطلق ، وبنو نفاثة بن الدئل من كنانة ، وسموا أحابيش لأنهم حالفوا قريشا تحت جبل يقال له حبشي ، أبو محمد عبد الملك ابن هشام (ت ٢١٣ه أو ٢١٨ه) ، السيرة النبوية ، تحقيق طه الرؤوف سعد ، دار الجيل ، (بيروت ، ١٤١١ه) ،ج ٢، ص ٢١٧، أبو الوليد محمد الازرقي (ت نحو٢٢٣ه) ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي الصالح ملحن ، دار الأندلس ، (بيروت ، ١٩٩٦م) ، ج١، ص ١١٥ .

80 – أبو الفرج الأصفهاني ،الأغاني ، ج٢٢، ص ٧١.

81 – الميداني ، مجمع الأمثال ، ج٢، ص ٢٤٥– ص ٢٤٦ .

82 – محمد توفيق أبو علي ، صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية من القرن ٦– ٩ه / ١٢– ١٥م ، ط٤ ، شركة المطبوعات ، (بيروت ٢٠١٢م) ، ص ١٦٢.

83 – ينظر تفصيلاته : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٦، ص ١٠١ وما بعدها .

84 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص٤٧٢ .

قيس ، وكان مع حرب بن أمية إخوته سفيان وأبو سفيان والعاص وأبو العاص بنو أمية ، فعقل حرب نفسه ، وقيد سفيان وأبو العاص نفسيهما ، وقالوا : لن يبرح رجل منا مكانه حتى نموت أو نظفر ، فيومئذ سموا العنابس ، والعنبس الأسد ، واقتتل الناس قتالا شديدا [٨٥] .

ومن دوافع التأثير في رفع معنويات المقاتلين ، هي تطيّب المقاتلين ؛ لحثهم على القتال . ففي يوم حليمة الدائر بين الغساسنة والمناذرة ، وحين اشتد أوار المعارك بينهم ولم يحسم النصر لأحد الطرفين ، فلما رأى الحارث الأعرج بن جبلة الغساني(٥٢٩- ٥٦٩ م أو ٥٧٠ م) ذلك ، طلب من ابنته ، يقال لها حليمة ، بتطيّب المقاتلين يومئذ ، وتلبسهم الأكفان والدروع ، وفيها جرى المثل ما يوم حليمة بسر [٨٦] . حتى غدا التطيب في المعركة دلالة على شدتها حتى قيل بذلك " على مأقط وبيننا عطر منشم " ، والمأقط معترك الحرب ، وعطر منشم كناية عن شدة الحرب . وأصل هذا القول ، إن قوما تحالفوا على الموت فغمسوا أيديهم في طيب منشم المذكورة تأكيدا ، فضرب طيبها مثلا في شدة الحرب [٨٧] . وضمنوا (منشم) في المثل القائل : " أشأم من عطر منشم " وقيل إن منشم امرأة عطارة غمسوا أيديهم في عطرها وتحالفوا بالاستماتة في الحرب [٨٨] . وجاء في قول الشاعر زهير بن أبي سُلمى :

تَدارَكْتُما عبْساً وذبْيانَ بَعْدمَا تفانَوْا ودَقُّوا بينَهم عِطرَ مَنْشَم [٨٩]

وقول المرار بن علقمة البكري :

ودقت بنو بكر ودارت رحاهم على ابن لؤى في الوغى عطر منشم [٩٠]

ويراد دقوا بينهم عطر منشم ، اشتدت الحرب بينهم [٩١] . وفي سياق الدلالة نفسها يرد منشم في مثلٍ آخر ما نصه " بينهم عطر منشم " [٩٢] ، ويعرض الأصمعي ، الشاهد التاريخي على أن مِنشم ، اسم امرأة عطارة كانت بمكة ، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها ، وإذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم ، فكان يقال : أشأم من عطر منشم ، يضرب في الشر العظيم [٩٣] . ومما تقدم في ظاهرة التطيب في الحرب، تستوقفنا السمة المشتركة في قصص

---

85 – المصدر نفسه ، ج١، ص٤٧١ .

86 – ابن قتيبة ، المعارف ، ص٦٤٢ ؛ الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٣١١ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج١، ص٤٢٨.

87 – عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (٥١٨ه) ، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق مجدي منصور الشورى ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ٢٠٠٠م) ، ج٣، ص١٠٧.

88 – أبو القاسم محمود الزمخشري (ت ٥٣٨ه) ، المستقصى في أمثال العرب ، ط٢، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ١٩٨٧م) ،ج١، ص١٨٤.

89 – يوسف بن سليمان الشنتمري (ت ٤٥٦ه) ، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، المطبعة الحميدية ، (القاهرة ، ١٣٢٣ه) ، ص٦.

90 – الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب ، ج١، ص ١٨٤.

91 – إبراهيم مصطفى وآخرون ،المعجم الوسيط ، ج٢، ص٩٢٤.

92 – الميداني مجمع الأمثال ، ص٩٣.

93 – المصدر نفسه والصفحة .

التطيب ، إن المرأة هي من تقوم بالتطيب ، ربما ذلك متأتٍ من اندفاع المرأة (الأم ، الأخت ، البنت) المحفز للاستبسال في المعركة ، حتى غدت منشم رمزا - مع اختلاف الروايات - يحضر في المعارك ، فهو تذكير المقاتل وتحميسه بأن المعركة باتت دفاعا عن القيم العليا (شرف المرأة) ، لأن حالة الانكسار والتراجع في القتال ؛ سيؤول بالنتيجة إلى انتهاك منظومة هذه القيم .

وعَرَفَ العرب إعلان المكافأة في المعارك ؛ لتحفيز المقاتلين على الاستبسال في القتال ، فنسمع عن إعلان مكافأة في يوم حليمة - المار ذكره - من قبل الحارث الأعرج الغساني ، حين نادى : يا فتيان غسان من قتل ملك الحيرة (المنذر بن المنذر بن ماء السماء) زوّجتهُ ابنتي هند [٩٤] . وفي يوم الكُلاب الأول (لسَلمة بن الحارث بن عمرو المقصور آكل المرار وأتباعه على أخيه شُرَحبيل وأتباعه) نسمع عن مكافأة أُعلنت في آخر النهار من ذلك اليوم ، بعد أن خَذَلت بنو حنظلة وعمرو بن تميم والرباب ، بكر بن وائل وانهزموا ، وثبتت بكر وانصرفت بنو سعد ومن معها عن تغلب ، وصبرت تغلب ، ونادى منادي شُرَحبيل : من أتاني برأس سَلمة فله مائة من الإبل ، ونادى منادي سَلمة : من أتاني برأس شُرَحبيل فله مائة من الإبل [٩٥] .

وقد جرت العادة عند بعض القبائل العربية ، إنهم كانوا يصطحبون في معاركهم آلهتهم أو مقدسهم ، أو ما يتيمنون به ؛ من أجل كسب المعركة ، مثلما حدث في يوم الزوَيرين (بين بكر بن وائل وتميم) ، حين أقبلت قبيلة تميم ببعيرين مجللين مقيدين ، وتركوهما بين الصَّفين معقولين ، وسموهما زُورَين (يعني الهين) ، فأخبرت قبائل بكر شيخها الأصم (عمرو بن قيس) بقولهم ؛ فقال : وأنا زُوركم (إلآهكم) ، وبرك بين الصّفين، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وانهزمت قبيلة تميم ، وارجز الشاعر الأغلب العجلي قائلاً :

جَاءُوا بِزُورَيْهِمْ وجِئْنَا بالأصمْ شيخٍ لنا كالليث من باقي إرَمْ [٩٦]

ويتجلى معتقد اصطحاب الآلهة في المعارك في أشارة (ابن الكلبي) إلى أن الصنم يغوث قد حملته بنو أنعم من مراد لما اتجهت لقتال غطيف ، ونقل قول احد الشعراء :

وَسَارَ بِنَا يَغُوثَ إلى مُرَاد فَنَاجَزنَاهُمُ قَبْلَ الصَّباح [٩٧]

ويُفهم من هذه الإشارة إلى أنهم حملوه لاعتقادهم أنه سيمدهم بالنصر ، وهم في صراعهم من أجل الاحتفاظ به ، مما يزيدهم إصراراً على كسب المعركة لصالحهم . ويذهب(د. محمد عبد المعيد خان) بعيدا برأيه ، في ذكره لأسطورة متأخرة ، بأن العربي رأى الإله يغوث يُدافع عن قبيلته في ساحة القتال ، استنادا إلى اعتقاده أن الطوطم يُدافع عن قبيلته في ساحة القتال [٩٨] . ولكن راجح القول ، لم نجد مثل هذا الاعتقاد في المصادر التي تحدثت عن الصنم يغوث ، ولم ترد إشارة أو نظائر يفهم منها أن الأصنام كانت تدافع عن قبائلها ، وإنما حَمْلُها في المعارك كان في

---

94 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص٤٢٨.

95 – المصدر نفسه ، ج١، ص٤٣٥.

96 – المصدر نفسه ، ص ٤٨٠.

97 – هشام أبو المنذر محمد بن السائب الكلبي ، الأصنام ، تحقيق أحمد زكي ، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب لسنة ١٩٢٤م ، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة) ، ص١٠ .

98 – الأساطير والخرافات عند العرب قبل الإسلام ، (بيروت ، ١٩٨١م) ، ص٩١.

ضمن مسوغات عبادتها – نستنصرها فتنصرنا- ، كما إن الأصنام لم تعرف على أنها طوطماً تنحدر منه القبائل ، وإنما آلهة تُعبد . ويرى (د. جواد علي) أن هناك قبة أو خيمة يوضع فيها صنم القبيلة ، وتحمل مع المحاربين ، وتضرب في ساحة القتال ، ليطوف حولها المحاربون ، يستمدون منها العون والنصر [٩٩] . ويسوق الباحث نفسه مثالاً ، لم نجده في ضمن كتب الأمثال العربية ما نصه : (لا تَفِرّ حتى تَفِرّ القبة) أو (لا نفرّ حتى تَفِرّ القبة) [١٠٠] . ولم نعثر على شاهد تاريخي من حروب العرب قبل الإسلام ما يشير إلى هذه القبة والخيمة ، أو الطقوس التي يمارسها المحاربون حولها ، لتمنحهم النصر . وفي سياق الاعتقاد ذاته ، يضيف الباحث نفسه معلومة ، استنادا إلى دراسة استشراقية ألمانية ، جاء فيها ، أن للات بيت وقبة يحملها المقاتلون معهم حين يخرجون إلى قتال، فيُنصَبان في ساحة المعركة ؛ ليَشَّجع المحاربون فيستميتوا في القتال، وينادي المنادون بنداء تلك الأصنام مثل: يا للات، وقد كانت لبقية الأصنام بيوت وقباب أيضًا [١٠١] . ويمكن القول إننا لم نعثر على الشق الأول من المعلومة في مصادرنا المتقدمة ، ولكن الشق الثاني منها وجدنا ما يتماثل معه ، حينما كان المشركون ينادون في معركة أحد ، أعلُ هُبَلْ ، فربما كان هذا امتداداً لاعتقاداتهم السائدة عن نصرة الآلهة لهم في معاركهم قبل الإسلام .

ويمكن لنا تصور الاعتقاد السائد بأن النصر من الآلهة ، له جذوره التاريخية في المنطقة ، أقتبسه العرب من الآشوريين إبان حروبهم معهم شمال جزيرة العرب . إذ نقرأ ذلك في نصوص آشورية [١٠٢] ، احدهما يرجع إلى الملك (آشور بانيبال ٦٦٨- ٦٢٧ ق .م) في حربه مع أمولادي ملك قيدار (مملكة في شمال جزيرة العرب ، امتدت إلى دلتا مصر) جاء فيه :" ثم زحف أمولادي ملك قيدار ، لمهاجمة ملوك بلاد أمورو الذين أخضعهم لي آشور وعشتار والآلهة العظيمة ، لقد أوقعت الهزيمة به بمساعدة (الآلهة .....) وأسرته حيا " [١٠٣] .

ومن عادات العرب في الحروب اصطحاب النساء والذراري في معاركهم ، ففي يوم فَيف الريح (بين عامر بن صعصعة والحارث بن كعب) ، وكان خبره أن بني عامر تطلب بني الحارث بن كعب أوتاراً كثيرة ، فجمع لهم الحصين بن يزيد بن شداد بن قنان الحارثي وهو ذو الغصة واستعان بقبائل جُعفي وزُبيد وقبائل سعد العشيرة ومراد وصُداء ونهد وخَثعم وشهران وناهس ، ثم أقبلوا يريدون بني عامر وهم منتجعون مكانا يقال له فيف الريح ومع (مذحج) النساء والذراري حتى لا يفروا ، فاجتمعت بنو عامر ، فقال لهم عامر بن الطفيل : أغيروا بنا على القوم فإني أرجو أن نأخذ غنائمهم ونسبي نساءهم ولا تدعوهم يدخلون عليكم ؛ فأجابوه

---

99 – المفصل ، ج٦،ص ٦٤.

100 – المرجع نفسه والصفحة ، ومصدر جواد علي ، مجلة المشرق ، السنة ١٩٣٨م، ج١، ص١١.

101 – المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ ، وينظر : هامش ٢، من المرجع نفسه والصفحة .

102 – ينظر : فيصل الوائلي ، تاريخ العرب القديم في النصوص الآشورية ٨٥٣– ٦٣٠ق. م ، (الكويت ، ١٩٨٧م) ص ٩١ ، ص ٩٢، نص رقم ٨٢١ ، ص ٩٨، نص رقم ١٠٨٣ .

103 – – ينظر : فاطمة هاشم تركي بيك ، علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب في عصر الدولة الآشورية الحديثة ٨٥٤– ٧١٢ق. م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الملك سعود ١٩٩٢م ، ص ١٠٢، نص رقم ٨٢٠.

إلى ذلك وساروا إليهم [١٠٤] . ومن الواضح البيّن ، كان الدافع على اصطحاب النساء تذكير المقاتل بالثبات في ارض المعركة ، لأن الفرار يعني إلحاق العار بالقبيلة ؛ بأخذ النساء سبايا ، فضلا عن الواجبات الأخرى التي تؤديها المرأة في المعركة من أمور تتعلق بتضميد الجرحى ، وإعداد الطعام ، ولكن يبقى الباعث الأول لحضورها ، هو تحفيز المقاتل على القتال وعدم الفرار . وقد استمرت عادة اصطحاب النساء حتى في المعارك الأولى لصدر الإسلام ، إذ تذكر كتب السير اصطحاب المشركين للنساء في معركة أحد ، ومساهمة هند زوج أبي سُفْيَان في رفع حماسة المشركين من أجل مواصلة القتال [١٠٥] . وتساهم المرأة في استعدادات المقاتلين والتهيئة للمعركة ، ففي يوم اللقيط المار ذكره كانت النساء قد خرزن الشكاء ؛ وهي أسقية الماء للغزو [١٠٦] . أو ما يرد من أن النساء يدلحن بالقرب على ظهورهن في الغزو، المراد أنهن كن يستقين الماء ، ويسقين الرجال [١٠٧] . أو بتعبير آخر، يزفرن القرب : يسقين الناس في الغزو؛ أي يحملنها مملوءة ماء [١٠٨] . وتتصاعد مساهمات النسوة في حال انكسار قبيلتهن ، " فإذا رأين دائرة الحرب أوشكت أن تدور على قبيلتهن، حسرن البراقع وكشفن الشعور وبرزن إلى المعمعة يستثرن حمية الرجال، ويدفعنهم إلى الدفاع عنهن وحمايتهن من السبي " [١٠٩] .

ونتلمس هذه الصورة في قول فارس مذحج عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

وبَدَتْ لَمِيْسُ كَأَنَّها بَدْرُ السَّماءِ إذا تَبَدَّى
وَبَدَتْ مَحَاسِنُهَا التي تَخْفَى وكانَ الأمرُ جَدّا
نازلتُ كَبشَهُمُ وَلَمْ أرَ مِنْ نِزَال الكبش بُدَا [١١٠]

وقد اتخذ بعض العرب سِمة تُميزهُم في حروبهم ، لتكن مزية يتفرد بها مقاتلو القبيلة عن القبيلة التي تقاتلهم ، وهذا ما نلحظه في يوم قضة (اليوم السادس في حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب ابني وائل) وهو يوم تحلاق اللمم ، وإنما قيل له تحلاق اللمم ؛ لأن بكرا حلقوا رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضا [١١١] . وجريا على عادة التميز في الحروب ، ولكن هذه المرّة يكون التميز سُنة لقبائل (ربيعة بن نزار) اتخذتها لتنفرد بها عن القبائل الأخرى ؛ وذلك إنهم يصفرون لحاهم ويقصون شواربهم ، فلا يفعل ذلك من ربيعة إلا من يخالفهم ويريد حربهم [١١٢] .

وكانت للقبائل شعارات في الحرب ؛ وهي ما تعرف في الحروب الحديثة بكلمة السر، يتعارف فيها المتقاتلون ، حين يحتمي وطيس المعارك ويرتفع الغبار ، ويتشابه زي المقاتلين ، فضلا عما لها من أثر في رفع معنويات المقاتلين

---

104 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص ٥٠١.

105 – ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٤، ص٨، ص١٤.

106 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص ٤٩٨.

107 – ابن منظور ، لسان العرب ، ج٢، ص٤٣٥

108 – المصدر نفسه ، ج٤، ص٣٢٥

109 – نوري حمودي القيسي ، الفروسية في الشعر الجاهلي ٦٢.

110 – شعر عمرو بن معد كرب الزُبيدي ، جمعه ونسقه مطاع الطرابيشي ، ط٢، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، (دمشق ، ١٩٨٥م) ، ص ٨١.

111 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص ٤١٠.

112 – المصدر نفسه ، ص ٤١٦.

ونُفرّتهم للقتال . فيقال : استشعر القوم إذا تداعوا بالشعار في الحرب [١١٣] . ففي يوم الكُلاب الأول وهو لبني تغلب على غسان ولخَم وبطون من اليمن ، نادى ابن ذي الجيلان : يا آل صدف (بطن من كندة) لاستنفار مقاتليه [١١٤] . وقد كان شعار بني عامر في الحرب (يا جعد الوبر)[١١٥].

وللقبائل في حروبها رايات ، والراية هي اللواء وأصله من العلامة ، وتسمى علما لأن به يعرف موضع مقدم الجيش [١١٦]. ويطلق عليها أُمُّ الرُّمْح وما لُفَّ عَلَيهِ [١١٧]. وهناك من يرى أن الراية ، هي فوق اللواء ، علم الجيش وتكنى أم الحرب [١١٨] . وفي قول أبي بكر ابن العربي : اللواء غير الراية ، فاللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح ، وقيل اللواء ، العلم الضخم ، والعلم علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار ، والراية يتولاها صاحب الحرب [١١٩] . والراجح أن التفريق بين الراية واللواء جاء في عصر الرسول الكريم (ﷺ) في حديث ابن عباس : كانت رايته (ﷺ) سوداء ، ولواؤه أبيض [١٢٠] .

وترفع كل قبيلة رايتها في معاركِها التي تخوضها ، فكانت راية قريش بيد حرب بن أمية ، وراية قيس بيد أبي البراء (عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) [١٢١] . ويتجمع عندها مقاتلو القبيلة ، يذودون عن حِمى قبيلتهم ، وتقترن الراية بديمومة القتال ما دامت منتصبة ، وكانت تُسلم إلى شجعانها ، فإذا قُتل تُرفع من قبل آخر ، وهكذا ... ؛ لأن في انتكاسها أو سقوطها يعني انهزام القبيلة . ولثبات الراية وعدم سقوطها شبهت برنق الطائر ، أي رفرف فلم يسقط ولم يبرح ، ورنق اللواء كما يقال رنق الطائر ، ويتبين ذلك في قول سيبويه :

يضربهم إذا اللواء رنقا ضربا يطيح أذرعاً وأسوقا [١٢٢]

وتثبت لنا وقعة يوم الكُلاب الثاني (لتميم على مذحج واحلافها من اليمن) أهمية الراية في ثبات المُقاتلين من عدمه في المعركة ؛ فكانت راية اليمن بيد وعلة الجرهمي ، ونتيجة لشدة الصدام الدائر في هذه المعركة ، طُرحت منه الراية وانهزم ، جرّ هذا الحدث إلى انكسار أهل اليمن وانهزامهم [١٢٣] .

---

113 – ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤، ص ٤١٤.

114 – الميداني ، مجمع الأمثال ، ج٢، ص ٢٤٥– ص ٢٤٦ .

115 – شرح ديوان لبيد ، ص٧.

116 – أبو الفضل عياض بن موسى السبتي ، مشارق الأنوار ، (المكتبة العتيقة ، ودار التراث ، د.ت) ، ص٣٠٤

117 – أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة ، لمحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ٢٠٠٠م) ، ج١٠، ص٥٧٦ .

118 – محمد شمس الحق العظيم آبادي(ت ١٣٢٩ه) ، عون المعبود في شرح سنن أبي داوّد، ط٢، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ١٩٩٥م) ، ج٧، ص ١٨٢.

119 – ابن حجر العسقلاني ،فتح الباري ، ج٦، ص١٢٦

120 – المصدر نفسه والصفحة .

121 – أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ه) ، المنمق ، ط١، حيدر آباد الدكن ، (الهند ، ١٩٦٤م) ، ص ٢٠٦.

122 – ابن سيدة ، المحكم والمحيط الأعظم ، ج٦، ص٣٧٣.

123 – أبو الفرج الأصفهاني ،الأغاني ، ج١٦، ص ٣٥٨.

ويتشرف في حمل الراية أو اللواء فارس يأتي بعد قائد المقاتلين في المرتبة [١٢٤] . ويقال إن العرب تُوضع اللواء موضع الشهرة [١٢٥] . وفي مجموعة القبائل التي تنتسب إلى جد أعلى ، يعطى اللواء إلى الابن الأكبر، كما هو في لواء ربيعة بن نزار للأكبر فالأكبر من ولده ، فكان اللواء في عنزة بن أسد بن ربيعة ، ثم تحول اللواء في عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، ثم تحول اللواء في النمر بن قاسط بن هنب ، ثم تحول اللواء إلى بكر بن وائل ، ثم تحول اللواء إلى تغلب فوليه وائل بن ربيعة [١٢٦] . ومن الذين حملوا الراية من ربيعة بسطام بن قيس الذي لقب (أبو اللواء ومنتهى الأحياء) [١٢٧] . وتتجلى أهمية اللواء حين جعله قصي بن كلاب من الوظائف الحربية التي أوجدها في مكة لتنظيم شؤونها ، ويعقد لواء قريش في دار الندوة ، ويتولى أمره قصي ، ومن ثم ابنه عبد الدار [١٢٨] .

وجاء وصف الاستبسال حول اللواء (الراية) بما ذكره أبو عبيدة في روايته عن يوم فيف الريح ، إذ تجمعت قبائل مذحج وأكثرها بنو الحارث بن كعب وقبائل من مراد وجعفى وزبيد وخثعم وعليهم أنس بن مدركة وعلي بن الحارث الحصين ، فأغاروا على بني عامر بن صعصعة بفيف الريح ، وعلى بني عامر(عامر بن مالك ملاعب الأسنة) ، قال : فاقتتل القوم فكثروهم ، وأرفضت قبائل من بني عامر ، وصبرت بنو نمير ، فما شبهوا إلا الكلاب المتعاظلة حول اللواء [١٢٩] .

ومن العادات التي دأب العرب على ممارستها ، هي عادة جز ناصية الأسير ، حين يراد المَنّ عليه بإطلاقه من الأسر ، والناصية هي الشعر في مقدمة الرأس فوق الجبهة . وتحتمل هذه العادة أكثر من تفسير ، منها إذلال الآخر ، بعد الانتصار عليه ، ووسمه بسمة تلحق به العار وبقبيلته ، لأنه طالما أفتخر بها شعراء القبائل المنتصرة ، على سبيل المثال ، ما نراه في قول بشر بن أبي خازم [١٣٠]:

فإذْ جُزَّت نَواصي آلِ بَدرٍ فَأَدُّوهَا وَأَسْرُى في الوَثاقِ

في المقابل إشعاراً للطرف الآخر بالسيادة ، وإذا عفا ، فإنه عفوَ المقتدر . وهناك من يرى في جز الناصية إذلالا وخنوعا ، لأنها رمز القوة والمنعة ، ولتكون قوته في أيديهم ، وربط هذه العادة بالجذور الأسطورية لأهمية الشعر والناصية في قصة شمشون ودليلة ، عندما كشف لها سر قوته التي تكمن في شعره ، فدعت دليلة رجلا وحلقت سبع خصال من رأسه ، وابتدأت بإذلاله وفارقته قوته [١٣١] . ومن

---

124 – المصدر نفسه ، ج٧، ص ٥٦٥، ج ٩، ص ٢٠.

125 – المصدر نفسه ، ج١٦، ص ٣٥٨.

126 – الميداني ، جمهرة الأمثال ، ج٢، ص٤١٤.

127 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص٤١٠.

128 – الازرقي ، أخبار مكة ، ج١، ص ١١٠.

129 – ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٥، ص٢٠٢ .

130 – ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ، قدم له وشرحه مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ،(بيروت ، ١٩٩٤م) ص ١١٦.

131 – ابتسام نايف صالح أبو الرب ، صورة الحرب وأبعادها الأسطورية في الشعر الجاهلي ، ص ٦٥.

الشواهد التاريخية عن جز ناصية الأسير ما نسمعه عن يوم اللقيط ، إذ أتى (اللهازم – تجمع من قيس وتيم اللآت من بكر بن وائل ، ومعهم عجل بن لجيم وعنزة بن أسد) فأوقعوا ببني دارم (من تميم) فاقتتلوا قتالا شديدا ، وعظمت الحرب بينهم ، فأسرت ربيعة جماعة من رؤساء تميم منهم ضرار بن معبد بن زرارة ؛ فجزوا ناصيته ، وأطلقوا سراحه [١٣٢] . ويفهم من ذلك أن جز النواصي كان لسادات القوم وفرسانهم ، ونضيف شاهداً أخر يعزز ما ذهبنا إليه ، ففي يوم فلج وهو يوم لبكر بن وائل على تميم ، وكان النصر لبكر بن وائل ، وأسر في المعركة (خالد بن مالك) من سادات تميم ، من قبل (عرفجة بن بجير العجلي) ، فمّن عليه فأطلق سراحه بعد أن جز ناصيته [١٣٣] . وهذا ما يؤكده قول للخنساء :

جَزَزْنَا نواصيَ فُرْسانهم وكانوا يَظُنُّونَ أن لا تُجَزَّا [١٣٤]

وأحيانا تتسع دائرة عادة جز الناصية لتشمل الأسرى كافة ، وهذا ما نفهمه من النزاع الدائر بين آل بدر الفزاريين حينما جاوروا بني لأم من طيء ، وبعد أن انتصر بنو لأم في المعركة ، عمدوا إلى جز نواصي أسرى آل بدر [١٣٥] . وربما ثمة استثناء لجز النواصي . فكان الملوك لا تجز نواصيهم ، وهذا ما يتضح في يوم طِخْفة (لبني يربوع – بطن من تميم - على المنذر بن ماء السماء) ، وفي هذه الواقعة أُسر قابوس قائد جيش المناذرة من قبل طارق بن ديْسق ، وأراد أن يجزّ ناصيته ، فقال : إن الملوك لا تُجزّ نواصيها [١٣٦] .

وكان الأسر فيه إذلال أيّما إذلال ، حين يُكَبلون الأسرى بالأغلال ، ويقادون مكرهين ، فضلا عن نظرة الازدراء التي يُقابل بها ، وامتهان الكرامة [١٣٧] . ولما كان الأسر يجلب العار للأسير ، لأنه فضّل الوقوع في الأسر على أن يُقاتل ويُقتل دفاعا عن قبيلتهِ وذِمارِها ؛ لأن الموت في ارض المعركة مفخرة للأهل والقبيلة، وكان شرفاً يسعى إليه المقاتل [١٣٨] . بينما الموت في الأسر يُعدُّ أسوأ ميتة [١٣٩] . ونتيجة لما تقدم ؛ قد يفضل عدد مِنْ المقاتلين حين تتهيأ لهم الفرصة ، أن يَقْتِلوا أنفسهُم ، ولا يقعوا في الأسر ؛ وهذه ما نلمسه في يوم ساحوق – لقبيلة ذبيان على قبيلة عامر بن صعصعة - ، إذ قام عدد من المنهزمين بإعدام أنفسهم خنقا ؛ خوفا

---

132 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص ٤٩٨.

133 – المصدر نفسه ، ج١، ص ٥١٢.

134 – ديوان الخنساء ، شرحه واعتنى به حمدو حماس ، دار المعرفة ، (بيروت ، ٢٠٠٤م) ، ص ٧٠.

135 – محمود شكري الآلوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، شرح وتصحيح وضبط محمد بهجت الأثري ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ٢٠٠٩م) ، ج١، ص١٦ .

136 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص ٤٢١

137 – عن تقيد الأسرى ، ينظر : ديوان عدي بن زيد العبادي ، ص ٣٨– ص٤٠ ؛ وعن الاستهزاء بالأسرى ينظر:قصة الاستهزاء بسيد قبيلة الحارث بن كعب ، عبد يغوث بن صلاءة الحارثي في المفضليات ، ص ١٥٥– ص ١٥٨.

138 – ينظر : أبو عثمان عمرو الجاحظ (ت ٢٥٥ه) ، البيان والتبين ،تحقيق فوزي عطوى ، دار صعب ، (بيروت ، د. ت) ، ج٤، ص ٦٨.

139 – ينظر : ديوان امرئ القيس ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، (القاهرة ، د. ت) ، ص٢٠٠.

من الوقوع في الأسر [١٤٠] . وقد جسد هذا المشهد الشاعر عروة بن الورد في قوله :

عجبت لهم ، إذ يخنقون نفوسَهُم ، ومقتلهم تحت الوغى كان أعذرا [١٤١]

وتبقى عادات الثأر التي تخلفها الحروب غاية في الخطورة ، لأنها المحرّض لإذكاء نار الفتن ، إذ تفرض على الموتور سواء الفرد أم القبيلة أن لا يهدأ لهم قرار ، حتى يأخذوا بثأرهم ، وإلا يصبحوا مثاراً للسخرية والاستهجان من الآخرين سواء كانوا أفرادا أم قبائل ، كما أنها تخلف ثارات وصراعات أخرى ، لا تنتهي إلا بتدخل أصحاب الرأي والحكمة ؛ خشية فناء الطرفين المتحاربين . والذي يعنينا في الحديث هنا ، الثأر المسبب لصراعات قبلية ، وليس الثأر على مستوى القتل الفردي . ومن هذه العادات التي تلازم الموتور حتى يأخذ بثأره . ما نقرأه عن مقتل كُليب بن وائل (سيد ربيعة) من قبل جساس ، وكان هذا الحادث باعثا لحرب البسوس ، فبعد أن سمع أخوه (المهلهل) خبر مقتله ، قام بجز شعر رأسه ، وقصر ثوبه وهجر النساء وترك الغَزَل وحرم القمار و الشراب [١٤٢] . وكذلك ما نستشفه في قصة الشاعر امرئ القيس حين قُتلَ والده (حجر الكندي) بنو أسد ، وسأل عن أمر أبيه فأُخبر بما كان ، فقال : ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سُكر غداً . اليوم خمرٌ وغداً أمر ، ثم شرب سبعاً فلما صحا آلى ألا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بدهن ، ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه من جنابة ، حتى يدرك بثأره [١٤٣] ، وفي رواية قال : الخمر عليّ والنساء حرام ، حتى أقتل من بني أسد مائة وأجز نواصي (شعر مقدمة الرأس) مائة [١٤٤] . وقاده ذلك ؛ لأن يهجم مع القبائل التابعة له على بني أسد ، ليتحلل من نذره ، بالثأر لأبيه .

وكان من عادة العرب أن لا تبكي قتلاها ، فضلاً عن تحريم الخمر وغسل الرأس من الجماع إلا بعد الأخذ بالثأر[١٤٥] ، وجرياً على هذه العادات لم يرثْ قتلى المشركين في بدر، يتضح في قول أبي سفيان: "يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة، ولا يبكيهم شاعر، واظهروا الجَلَد والعزاء فإنكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غَيظكم، فأكلّكم ذلك من عداوة محمد وأصحابه، مع انه إن بلغ محمّداً وأصحابه شَمِتوا بكم، فيكون أعظم المصيبتين شَماتتهم، ولعلّكم تُدركون ثأركم" فمكثت قريش شهراً لا يبكيهم شاعرٌ ولا تنوح عليهم نائحة [١٤٦] . لكن كعب ابن الأشرف خرج عن المألوف ورثى قتلى قريش بأبيات،وجعل من الصبيان والجواري ينشدون هذه الأبيات في مكة، فناحت قريش على قتلاها شهراً، ولم يبق دارٌ بمكة إلا فيها نوح، وجز النساء شعر الرؤوس،

---

140 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص ٦٤٤.

141 – ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك ، دراسة وشرح وتحقيق أسماء أبو بكر محمد ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ١٩٩٨م) ، ص٧٤.

142 – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١، ص ٤١٦.

143 – أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٩ ، ص ١٠٦ .

144 – المصدر نفسه ، ج٩، ص ١٠٥.

145 – التبريزي، ديوان الحماسة شرح التبريزي، ج١، ص٣٤٦.

146 – الواقدي، المغازي، ج١، ص١٢١.

وكان يُؤتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه فتوقف بين أظهرهم فينوحون حولها [147].

ونرجع مرّة أخرى إلى حادثة مقتل كليب بن وائل ، إذ نلمس فيها ارتفاع سقف مطالب قبيلته حتى ارتقت إلى المستحيل من أجل الأخذ بالثأر . وذلك حين أرسل المهلهل وهو أخو كليب رجالا إلى بني شيبان ، فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو في نادي قومه ، فقالوا له : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليبا بناقة وقطعتم الرحم و انتهكتم الحرمة وإنا نعرض عليكم خلالا أربعا ، لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع : إما أن تحيي لنا كليبا ، أو تدفع إلينا قاتله جساسا فنقتله به ، أو هماما فإنه كفء له ، أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء لدمه فقال لهم أما إحيائي كليبا فلست قادرا عليه ، وأما دفعي جساسا إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد ، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره ، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما أتعجل الموت ، ولكن لكم عندي خصلتان : أما إحداهما ، فهؤلاء أبنائي الباقون فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم ، وأما الأخرى فإني أدفع أليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر . فغضب القوم ، وقالوا : قد أسأت ببذل هؤلاء ، وتسومنا اللبن من دم كليب ؟ ونشبت الحرب بينهم [148] .

ومن اللافت بطلبهم في الثأر ، قتلهم من هو بواء للقتيل . والبواء السواء ، يقال فلان بواء لفلان معناه انه إذا قتل به رضي قومه [149] . وعُدّ (تراتبية الدم) عرفا ثأرياً تستند إليه القبائل وتحتكم ، وتنطلق التراتبية الثأرية من أنّ تَغايُرَ دم الملك ودم السوقة ، ينبغي له أن يفضي إلى تكافؤ عام في نمطية إدراك الثأر ، فيكون السيد بالسيد ، والعبد بالعبد ، وسواء القبيلة بسواء القبيلة [150] . ودلالة صورة هذا المعتقد نلتمسها في تضاعيف أخبار حرب البسوس ، فحين قتل المهلل ، بجير بن الحارث بن عباد ، ويقال إنه كان ابن أخيه ، فلما بلغ الحارث قتله، قال : نعم القتيل ، قتيل أصلح بين ابني وائل ، فظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفئا له ، فقيل له : إنما قتلهُ بشسع [151] نعل كليب ، وذلك أن المهلهل لما قتل بجيرا ، قال : بؤ- أي يساوي- بشسع نعل كليب ؛ فغضب الحارث بن عباد[152] . وقالت امرأةٌ من طَيِّءٍ :

فَيَقْتُلُ جَبْرَاً بامرِئٍ لم يكنْ لهُ بَواءً ولكنْ لا تَكايُلَ بالدَّمِ

أي لا يجوزُ أن تَقْتُلَ إلاّ ثَأرَكَ ، ولا تَعْتَبِرْ فيه المَساواةَ في الفَضْلِ إذا لم يكن غَيْرُه[153] .

ومن الشواهد التي تدل على المطالبة بالبواء بالثأر ، وعدم التكايل بالدم ، ما تبين في اجتماع بني أسد بعد قتلهم حجر بن عمرو والد امرئ القيس ، وبعثوا إلى امرئ القيس ابنه على أن يعطوه ألف بعير دية أبيه ، أو يقيدوه من أي رجل شاء

147 – المصدر نفسه.

148 – ابن الأثير ،الكامل في التاريخ ، ج١، ص ٤١٦.

149 – الميداني ، جمهرة الأمثال ، ج١، ص٢٢٦ .

150 – محمد توفيق أبو علي ، صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية ، ص ٢٩٧.

151 – أحد سيور النعل يدخل بين الإصبعين.

152 – ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٥ ، ص ١٩١ .

153 – الزبيدي ، تاج العروس ، ج٣٠، ص٣٧٠ .

من بني أسد ، أو يمهلهم حولا ، فقال : أما الدية فما ظننت أنكم تعرضونها على مثلي، وأما القود فلو قيد إلي ألف من بني أسد ، ما رضيتهم ولا رأيتهم كفؤا لحجر [154].

وإن حادثة قتل بُجير بن الحارث المار ذكرها، تكشف عن عادة أخرى ارتبطت بالثأر، تمثلت في جز ناصية فرس المقتول وهلب ذنبها ، إذ بعد مقتل بجير بن الحارث ، غضب الحارث ، ودعا بفرس بجير ، وكانت تسمى النعامة ، فجز ناصيتها وهلب ذنبها [155] . ونرى في هذه العادة ، إشراك الحيوان في منظومة اعتقادهم ، ربما أُريد للحيوان أن يُعَلم ، لكي لا يسمح لأحد ركوبه ، إلى أن يُؤخذ بثأر فارسه . أو ترتبط بالحزن عليه ، كما تفعل النسوة ، حين تقص لمتها حزنا على موت قريب لها . ومن يدري لعل هناك رمزاً يَعنون بها من ذلك .

وفي سياق الثأر ، بل منتهاه ، ولدت عادات منها النذر أو الحلف حتى يتم لهم الأخذ بالثأر . فقد جاء في المرويات أن (عمرو بن هند ٥٥٤- ٥٦٩ م) نذر (أوجب على نفسه) أن يحرق من بني دارم (من قبيلة تميم) مائة رجل ؛ لأنهم قتلوا أخاً له ، فنُعت بـ (المحرق) ، وعُد أول من عاقب بالنار[156] ، حين برّ بقسمه في يوم أوارة من ناحية البحرين ، إذ أمر لبني دارم ، بأخدود فخد لهم ، ثم أضرم ناراً ، فلما احتدمت وتلظت قَذفهم فيها فاحترقوا [157] . ويصل الوفاء بالنذر طلبا للثأر إلى أن (مسور بن زيادة الحارثي) يدعُ قومه لسلبه الرياسة ، فلا يدعى للحروب ، إن لم يجتهد في الطلب بثأره ، فإما أن يقتل ، وإما أن يظفر ، هذا ما نستشفه من قوله :

فلا يَدْعُني قومي ليومِ كريهةٍ لئن لم أُعجِّل ضربةً أو أُعَجَّل [158] .

مما تقدم تتأكد المسحة الدينية لنذور الأخذ بالثأر ، إذ تجعل الموتور في حالة (إحرام) لا يحله منها إلا إنفاذه مهمته المقدسة . بما يُشدد على التلازم بين الثأر وحالة الإحرام ، فيبدو فيها التعبير الأسمى عن التأله الذي يرجو طالب الثأر أن يتقرب بوساطته من الآلهة [159] .

وارتبطت بالثأر اعتقادات تبدو نوعاً من الأساطير، وهي اعتقادهم بالهامة (يقولون: إذا قتل قتيل خرجت من رأسه هامة) [160] ، فإذا لم يؤخذ بثأره نادت

---

154 – أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج٢٢، ص٨٧ .

155 – عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣ه) ، خزانة الأدب ، تحقيق محمد نبيل طريفي ، أميل بديع اليعقوب ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ١٩٩٨م) ، ج١ ، ص ٤٥٠ .

156 – حمزة بن الحسن الأصفهاني (ت) ، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، مكتبة دار الحياة ، (بيروت د.ت) ، ص ٦٧ ؛ سلمة بن مسلم العوتبي (لا تعرف سنة وفاته) ، الأنساب ، (سلطنة عمان ، ١٩٨٤م)، ج١ ، ص ١٧٥ .

157 – أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ،ج٢٢ ، ص ١٩٤.

158 – التبريزي ، شرح ديوان الحماسة ج١، ص ٨٤ .

159 – ينظر : إحسان النص ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، دار اليقظة العربية ، (بيروت ، ١٩٦٤م) ، ص ١٢٣.

160 – أبو عبيدة، نقائض جرير والفرزدق، ج١، ص٦٥.

الهامة على قبره اسقوني فإني صدية [١٦١] ، وليس أدل على ذلك من وصية احد الشعراء الآتية:

ولا تزقون لي هامة فوق مرقب فإن زقاء الهام للمرء عائب
تنادي ألا اسقوني وكل صدى به وتلك التي تبيض منها الذوائب [١٦٢]

ومن هذين البيتين يستشف ابن أبي الحديد ، إن الشاعر يوصي ابنه بان لا يترك ثأري إن قُتلت، فإنك إن تركته صاحت هامتي: اسقوني فإن كل صدى - هو العطش - بأبيك، وهو أمر صعب، وهو مقبور إذا لم يثأر به، وان صعوبة الأمر عليه يعني أن ذلك عار عليك[١٦٣] .

وقد أدرك الشهرستاني أن اعتقاد العرب بالهامة متأت من الاعتقاد بتناسخ الأرواح، فإذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيراً هامة فيرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة [١٦٤] . ويطالعنا المسعودي عن اعتقادهم بالهامة، فيزعمون أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان، فإذا مات أو قتل مُطيفاً به متصوراً له في صورة طائر يصدح على قبره مستوحشاً له [١٦٥] ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم تتوحش وتصدح وتوجد حيث مصارع القتلى وأجداث الموتى، ويزعمون أن الهامة تبقى على مقربة من ولد الميت وعقبه وتجالسهم لتعلم ما يكون بعده فتخبره به [١٦٦] .

وزعمت اليهود أنها تدور حول قبر الميت سبعة أيام ثم تذهب [١٦٧] . ويعلل احد الباحثين زعم اليهود حول الهامة، إنها من فتنهم للسيطرة على عرب الجاهلية لأن معنى سبعة أيام مدة كافية ليؤلب اليهود مواقع الثأر بين العرب، أي على العربي أن يثأر، وبذلك أشعلوا الحرب بين الأوس والخزرج باستغلال تلك المعتقدات في الوقيعة بينهم[١٦٨] .

يتبين مما تقدم في اعتقاد العرب بهامة القبر إنها جاء لتبرير الأخذ بالثأر والقتل، حتى بلغ من حرصهم على الثأر أنهم رفعوه إلى درجة الأوهام والأساطير أولا، ثم تأثر الجاهليون بالخيالات والأوهام في هذا المجال ثانية . وقد تكون الفكرة

---

161 عز الدين عبد الحميد ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل (بيروت ، ١٩٧٨م) ، ج١٩، ص٣٩١.

162 – المصدر نفسه، ص٣٩٢.

163 – المصدر نفسه.

164 – أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨ه) ،الملل والنحل، تحقيق محمد سعيد كيلاني ، دار المعرفة ، (بيروت ، د.ت) ، ج٢، ص٢٣٧.

165 – أبو الحسن بن الحسين علي المسعودي (ت ٣٤٦ه) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق شارل بلا ، المطبعة الكاثوليكية ، (بيروت ، ١٩٦٦م) ، ج٢، ص٢٨٧

166 – المصدر نفسه.

167 – ابن حجر، فتح الباري، ج١، ص٢٠٦ ؛ العظيم آبادي، عون المعبود، ج١، ص٢٩٤ــ ٢٩٥.

168 – د. محمد إبراهيم الفيومي، في الفكر الديني الجاهلي، ط٣، دار المعارف ، (القاهرة ، ١٩٨٢م)، ص٢٨٥.

تسويغاً ودافعاً لهم في إدراك ثأرهم في أقرب وقت بشكل يحقق الراحة والاطمئنان لهامة القتيل فيسكنها عند طلب الثأر [١٦٩] .

وهناك من القبائل التي تتصف بالضعف ، فلم تستطع أن تأخذ بثأر قتلاها ، وكان من العار أخذ الدية على وفق مبدأ جاهلي ، يأبون استبدال الدم باللبن ؛ لذا تحايلت بما يشبه الغرائبيات ، سموها التعقية : وهي سهم الاعتذار، وأصل هذا ؛ أن يقتل الرجل من القبيلة فيطالب القاتل بدمه ، فيجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء المقتول بدية مكمّلة، ويسألونهم العفو وقبول الدية ، فإن كان أولياؤه ذوي قوّة أبوا ذلك ، وإلاّ قالوا لهم إن بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي، فيقول الآخرون ما علامتكم؟ فيقولون : أن نأخذ سهماً فنرمي به نحو السماء ، فإن رجع إلينا مضرّجاً دماً فقد نهينا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد فقد أمرنا بأخذها. فما رجع السهم قطّ إلاّ نقيّاً، ولكنهم لهم في هذا المقال عذر عند الجهّال. ولذلك قال شاعر احد ، قبيل فعل هذا ، ولم يشاهده ولا رضيه :

عقّوا بسهم ثم قالوا سالموا ... يا ليتني في القوم إذ مسحوا اللحى

ثم مسحوا لحاهم ثم قالوا سالموا [١٧٠] . وبذلك ترسخت في ذاكرتنا ، أن مسح اللحى علامة الصلح والرضا .

ومما لاشك فيه أن الحرب تُخلف القتل والدمار ، وحين يعتقد الطرفان المتحاربان ، أن القتال أخذ منهم مأخذا كبيرا من رجالهم ، وغدت الحرب سجالا ، وأوارها مستمر ، ولم تحسم كفة القتال ، فتارة لهذا الطرف ، وأخرى للطرف الأخر ، فهنا تأتي دعوات الصلح ، لوقف عملية أفناء الطرفين . فمسوغ قبول الدية يفضي إلى قبول الصلح ، ولكن بطريقة تكون مقبولة من طرفي القتال ، بحيث لم يكن فيها امتهان . هذا ما تضمنته الرواية التي وصلت إلينا عن حرب الفِجار الثاني ، فقد شهد يومها الرابع (يوم عكاظ) ، وكان القتال فيه على أشده ، وأوشك أن تكون الغلبة فيه لقريش على قيس ، فتأتي دعوة السلام من قريش مِن أحد رجالها (عتبة ابن ربيعة) ، مخاطبا قيساً لوقف القتال ، ولكن قيس كانت موتورة ، لأن قتلاها أكثر من قريش ، فدعاهم إلى خطة فيها الصلاح وإنصاف قيس ، وذلك أن يعدّو القتلى ، فأتضح أن قتلى قيس أكثر بـ (عشرين رجلا) ، فطلبوا من قيس دفع ديتهم ، فَرُهِنَ يومئذ شباب من قريش ، حتى تؤدي ما عليها من دية إلى قيس ، وبذلك وضعت الحرب أوزارها [١٧١] . وما نستشفه من هذه الرواية أخذ الرهان حتى الوفاء بالذمة ، وغدت هذه عادة تتكرر في معارك أخرى ، إذ تؤخذ الرهائن من الطرفين المتقاتلين ، لكي يتعهدوا في الكف عن القتال ، ونلمس ذلك ، بما جاء في أحد الروايات ، أن ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء ، وقيل عمر بن هند ، توسط بين قبيلتي بكر و تغلب ابني وائل ، فأصلح بينهما بعد حرب البسوس بحلف سمي حلف ذي المجاز ، فأخذ عليهم المواثيق والرهائن من كل حي من الحيين

---

169 – بشرى محمد الخطيب، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، طبعة الإدارة المحلية ، (بغداد ، ١٩٧٧م) ، ص٤١.

170 – أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧ه) ، التنبيه ، تحقيق الأب انطون صالحاني اليسوعي ، دار الكتب المصرية ، (القاهرة ، ٢٠٠٠م) ،ج١، ص ٢٤، البغدادي ، خزانة الأدب ، ج٤، ص ١٤٠.

171 – ابن حبيب ، المنمق ، ص٢٠٨ – ص ٢١٠.

مئة غلام من أشرافهم ، ليكف بعضهم عن بعض [١٧٢] . وضمن هذا الحلف والعهود، الحارث بن حلزة اليشكري في قوله :

واذكروا حِلْفَ ذِي المجاز وَما قُدِّ م فِيهِ الْعُهُدُ وَالْكُفَلاءُ
حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّي ، وَلَنْ يَنـقُضَ مَا فِي المهَرق [١٧٣]

وفي سياق عادتهم في احتساب القتلى ، ودفع دية من له زيادة في القتلى من الطرفين ، تقدم المرويات أمثلة أخرى لما تقدم ، ففي حرب سُمير (وكانت للأوس على الخزرج) ، واستمر القتال بينهم حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفر للأوس على الخزرج ، ولما رأت الأوس طول الشر ، وأن الحرب بين الأخوة (لأنهم ابنا حارثة بن عمرو مزيقيا) ، سيفني بعضهم بعضا ، فأرسل الطرفان إلى أحد الحكماء وهو(ثابت بن المنذر بن حرام – أبو الشاعر حسان) ، لوضع حد للاقتتال بينهم ، والذي يعنينا من مجمل حُكمه : أن تَعدّ القتلى الذين أصاب بعضهم من بعض في حربهم ، ثم يكون بعض ببعض ، ثم يُعطوا الدية لمن كان له فَضل في القتلى من الفريقين [١٧٤] .

ونتيجة لما خلفته الحروب من عادات ، اقترنت أسماء عدد من شهور العرب بفعل الحروب ، فشهر مُحَرَّمُ سَمَّتْه العَرَبُ بهذا الاسْم لأنَّهم كانوا لا يستَحِلّون فيه القِتالَ [١٧٥] . وفي الدلالة ذاتها يقال سموا المحرم محرَّما ؛ لأنهم كانوا يغيرون ، فاتفق إن أغاروا في هذا الشهر فلم ينجحوا ؛ فحرموا القتال فيه ، فسمّوه محرما [١٧٦] . وسموا الشهر صفرا ، لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صفرا من المتاع [١٧٧] . وكانوا يسمون رجبا مُنْصِل الأسِنَّةِ أو مُنْصِل الألِّ والأَلَّةِ(السهام) ، والألال : اسْمُ رَجَبَ في الجاهِلِيَّةِ ، أي مُخرِجُ الأسِنَّةِ من أماكِنِها ، كانوا إذا دخلَ رجَبُ نزَعوا أسِنَّةَ الرِّماحِ ، ونِصالَ السِّهامِ ؛ إبطالاً للقتالِ فيهِ وقَطْعاً لأسبابِ الفِتَنِ بحُرْمَتِه ؛ فلما كانَ سبباً لذلكَ سُمِّيَ به [١٧٨] . ويقولون في رجب الأصم لما تقدم من أنه لا يسمع صوت السلاح ولا الاستغاثات فيه ويجمع على أصام [١٧٩] .أما ذو القعدة اسم شهر كانت العرب تقعد فيه ، وقيل سمي بذلك لقعودهم في رحالهم عن الغزو والميرة [١٨٠] .

ومن عاداتهم تحريم القتال في أرْبَعَةِ أشهر من السنة ، لأنها أشهر حج ، سَمّوها الأشْهُرُ الحُرُمُ ، ثلاثةٌ سَرْدٌ أي مُتَتابِعَة ، وواحد فَرْدٌ ، فالسَّرْدُ : ذُو القَعْدَةِ وذُو الحِجَّةِ والمُحَرَّمُ ، والفَرْدُ رَجَبٌ . وكانت بعض من قبائل العرب (خَثْعَمٌ وطَيِّيءٌ) تَستَحِلّ فيها القِتالَ ، إلاّ دِماءَ المُحِلّين فكانت العربُ تستحلُّ دِماءَهُم

172 – إسماعيل بن القاسم أبو علي القالي (ت ٣٥٦ه)، أمالي القالي في الأخبار والإشعار، (مصر ، ١٩٠٤م) ، ج١، ص١٩٢.

173 – ديوان الحارث بن حلزة اليشكري ، دار الأمام النووي ، دار الهجرة ، (دمشق ، ١٩٩٤م) ، ص ٧٠.

174 – أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج٣، ص٢٧

175 – الزبيدي ، تاج العروس ، ج٣١، ص ٤٣١..

176 – الألوسي ، بلوغ الأرب ، ج٣، ص٧٥.

177 – ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص٤٦٣.

178 – الزبيدي ، تاج العروس ،ج٣٠، ص٤٩٨ .

179 – القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج٢، ص٤٠٦.

180 – ابن منظور ، لسان العرب ، ج٣، ص٣٥٧ .

خاصَّةً في هذه الشُّهور[١٨١] . ولكن حتى القبائل التي حرمت القتال في هذه الأشهر ، قد خرقت بعضها وهي (قريش وكنانة ، وقيس) المقدس ؛ بانتهاك حرمة هذه الأشهر ، ففِجرت ، حين أحلت المحرمات ، وقاتلت في هذه الأشهر ، وسميت حروبها بالفِجار الأول والثاني . وسبب تسميتها في الفِجار، بما استحل هذان الحيان كنانة وقيس عيلان فيه من المحارم بينهم [١٨٢] .

الخاتمة

تناولنا في بحثنا هذا عادات العرب قبل الإسلام ، وقد بيّنا فيه مصطلح الحرب ، الذي يعني محاربة العدو ومقاتلته ، ومفردة (عادة) وتعني المواظبة على الرجوع ، وارتكازها في سلوكهم الاجتماعي .

واتضح أن حروبهم سُمّيت بالأيام ؛ لأن القتال فيها نهارا ، وكانوا يعنون باليوم النهار . وتابع البحث العادات التي أفرزتها حروبهم قبل الإسلام ، وهي : إيقادهم لنار الحرب إيذاناً ببدئها ، ولتصير أعلاما للناهضين بها . ومفاجأتهم للعدو صباحا(واصبحاه). وإنذار القوم عن بعد بما يعرف بـ (النذير العُريان) ، ببدء العدو بشن هجومه عليهم ، وكذلك بوساطة شخص يدعى الصريخ . كما استعملوا الرمزية في أشعار قبائلهم في الهجوم ، وهي : الرمل والتراب ، والشوك ، واللون ، ونبات الحنظل وغيرها ، ولكل رمز من ذلك دلالته . ومن عاداتهم إذا خرجوا للقتال لبسوا الدروع والموشى من الثياب ، وتطيبوا بالطيب ، وكان للتشاؤم والتيامن حيزا في عاداتهم ، فضلا عن استشارتهم لكاهن القبيلة ؛ ليطلعهم ما ستؤول إليه نتائج القتال .

وعُنّي البحث بدراسة عادة المبارزة بين قادة أو شجعان الطرفين المتقاتلين ، وما يتمخض عنها من نتائج على الطرفين المتضادين . وتضح أن لهم وسائلهم في رفع معنويات المقاتلين منها: عقّل سادة القوم أنفسهم أمام جندهم ، والتطيب بالطيب من قبل النساء ، وإعلان المكافأة .

وتلمس البحث عاداتهم باستصحاب النساء والذراري في معاركهم والمسوغات لذلك ، وعادة اصطحاب المقدس من آلهة أو ما يتيمنون به في معاركهم . واتضح أن للقبائل شعارات أشبه بكلمة السر بين المقاتلين . ولهم راياتهم ، التي لها مدلولاتها في المعركة ، فضلا عن وسائل القبائل في التميز فيما بينهم .

وتابع البحث عاداتهم في الأسر ، منها جز ناصية الأسير ، إذ منّوا عليه بالإفراج ، أو جز ناصية فرس الأسير ، ومدلولات ذلك . وعاداتهم بالثأر ، منها : جز شعر الرأس ، وتقصير الثوب ، وهجر النساء ، وتحريم الخمر ، والنذور للأخذ بالثأر ، وعدم رثاء القتلى ، ذلك كله ، إلا بعد الأخذ بالثأر ، فضلا عن قتلهم إلا من هو بواء (سواء) للقاتل . واعتقادهم بالهامة التي تدخل في مجال الخرافة أو الأسطورة .

وتطرق البحث إلى عاداتهم في الصلح ، بتحججهم بسهم التعقية للقبائل التي لم تستطع الأخذ بالثأر ، ومسح اللحى دلالة على التراضي، ودفع الدية عن الزيادة في القتلى بعد احتساب عددهم من الطرفين المتقاتلين، ووضع الرهائن لحين أكمالهم دفعها . ومن عاداتهم إنهم حرموا القتال في أربعة أشهر من السنة أطلقوا عليها (

181 – الزبيدي ، تاج العروس ، ج٣١، ص٤٦٠ .

182 – ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١، ص٣٢٦ .

الأشـــهر الحُـــرم) ، ونتيجـــة لمـــا خلفتـــه الحـــروب مـــن عـــادات ، اقترنـــت أســـماء عـــدد مـــن شهور العرب بفعل الحروب .